روايات عالمية للجيب ٢

Looloo
www.dvd4arab.com

كنوز الملك سليمان

تأليف : رايدر هاجارد
إعداد : د. نبيل فاروق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

١ ـ المعبـود ..

قصتى فى الواقع عجيبة وغريبـة ، حتى اننى اتساءل ، وانا اخطها إليكم ، عمـا إذا كانت قابلة للتصديق ام لا ، فهى ـ على الرغم من حدوثها ـ تبدو اقرب إلى روايات الأساطير ، وخيالات الأدباء ، بكل ما تذخر بـه من احـداث مثيرة ، ومـواقف مدهشة رهيبة ، وبكل ما تحمـله إلى مستمعيها وقرائهـا من روائح الشرق ، وغموض الأدغـال والبرارى ..

ثم اننى لست بالبطل الأسطورى المقدام ، الذى يمكن ان تحاك حوله كل هذه المغامرات والأحداث ، فلقد ولدت فى (كمبرلاند) ، من اب مزارع ، اختار لنفسه زوجة من إحدى مقاطعات (ويلز) ، ممـا اورثنى حب الانتقال والأسفار ، وملأ عروقى بدماء المغامرة والمجازفة ..

ولا تجعل هذه المقدمة تبهرك ، او تحبس انفاسك ، او تدفعك إلى رسم صورة خيالية لى ، ابدو فيها ممشوق القوام ، مفتول العضلات ، وسيم الملامح ، فانا ـ على العكس ـ هزيل نحيل ، لى وجه يشبه وجه الجدى الأبيض ، إلى حد دفع المصريين إلى ان

يطلقوا على اسم (الجدى الأبيض) بالفعل ، عندما قضيت فترة اسيرا فى سجونهم ، بأمر خليفتهم ..

ثم إن عمرى الآن يناهز الخامسة والستين ..

ولكن دعونا نعود إلى قصتى ..

إننى طبيب من الطراز القديم ، الذى لم يكن يعتمد على طرق العلاج الحديثة ، ولم اكد ابلغ سن الشباب حتى رحت أغذى رغبتى فى الانتقال ، بالسفر إلى الشرق والغرب ، حتى استقر بى المقام فى (القاهرة) ، مع حلول عيد ميلادى الأربعين ، وفيها رحت أمارس مهنتى ، وتصورت اننى ساكتفى بممارستها حتى آخر يوم من عمرى ، لولا أن التقيت بمستر (هيجز) ، عالم الآثار الشهير ..

ولهذا اللقاء قصة ..

لقد دعيت يوما لتوقيع الكشف الطبى عليه ، عندما اصيب بمرض التيفوئيد ، وعلمت انه واحد من اشهر علماء الآثار فى العالم ، وانه يتحدث ما يقرب من خمس عشرة لغة ، كما يمكنه قراءة اللغة الهيروغليفية بنفس البساطة التى يقرأ بها (جريدة التايمز) ، وانه قد انفق آخر قرش يمتلكه على بحوثه فى علم الآثار والتنقيب ، فلم اتردد فى معالجته مجانا ،

إلى ان شفى تماما ، وقامت بيننا صداقة وثيقة . خاصة وانه كان فى الثالثة والثلاثين من عمره ، اى ان الفارق السنى بيننا لم يكن كبيرا ..

وفى (القاهرة) ربطنى الحب والزواج بفتاة قبطية ، من إحدى اسر الصعيد ، وسليلة للفراعنة الأمجاد ، ونعمت معها بسعادة لا مثيل لها ، على الرغم من احتفاظها بطابعها الشرقى ، وانجبت لى ابنا واحدا ، ثم اصابها الطاعون اللعين ، فقضت نحبها ، وتركت لى الطفل ، الذى ابت الأقدار ان تترك لى لمحة من الحياة معه ، واصرت على ان تملأ كأس حزنى حتى حافته ، فاختطف رجال (المهدى) ابنى ، وحطموا ما تبقى من نفسى تحطيما ..

وبعدها سارت بى الحياة على نهج ثابت ، ووتيرة حزينة ، إلى ان فكرت يوما فى زيارة وطنى ، فسافرت إلى (لندن) ، واتجهت من فورى لزيارة مستر (هيجز) ، وهناك قادتنى خادمته إلى حجرة مكتبه ، حيث وجدت نفسى بين اكداس من التحف والمخطوطات والبرديات الفرعونية ، وصناديق احتشدت ببقايا مومياوات واجزاء بشرية محنطة ، ولم يكد (هيجز) نفسه يصل ، حتى بدا لى شبيها بتلك الأشياء ، وهو يرتدى معطفا ابيض اللون ،

اتسخ كثيرا بالتربة وغبار العمل ، وقد وخط الشيب فوديه ، وبدا وكأنما قد تسلل إلى عينيه الباهتتين ، وهتف وهو يصافحنى فى حرارة :

ـ يا للمفاجاة !.. (ريتشارد آدمز) بشحمه ولحمه !!.. اهو انت حقا ؟

ابتسمت وانا اصافحه قائلا :

ـ يلوح لى ان كلمة شحمه هذه تحمل الكثير من المبالغة يا صديقى ، والواقع اننى اردت مفاجاتك ، فاخبرت خادمتك اننى مجرد صديق ، ولم اذكر لها اسمى .

هتف :

ـ مرحبا بك فى اية لحظة يا صديقى .. دعنى اقدم لك صديقى الكابتن (اورم) .

صافحت الشاب الذى قدمه لى ، وهو ممشوق القوام ، عريض المنكبين ، وسيم الملامح ، هادىء الطباع ، يبدو فى الخامسة والعشرين تقريبا ، و (هيجز) يستطرد فى حماس :

ـ (اورم) هو احد نوابغ اللغة العربية وعلم الآثار المصرية ، ولقد تطوع فى الجيش إبان حرب (البوير) ، واصيب ثلاث مرات .

تبادلت كلمات المجاملة مع (اورم) ، وانهمك

ثلاثتنا فى أحاديث طويلة ، استعدنا خلالهـا بعض الذكريات ، انا و (هيجز) ، وتناولنا بعض الطعام والشراب ، ثم اشعل (هيجز) غليونه ، واسترخى فى مجلسه ، وهو يسألنى فى اهتمام :

ـ قل لى يا (آدمز) : لماذا عدت إلى الوطن ؟

اجبته فى بساطة ، وانا الوح بكفى :

ـ مجرد إجازة .

اعتدل فى حركة سريعة ، وانعقد حاجباه فى اهتمام بالغ ، وهو ينفث دخان غليونه ، متطلعا إلى خاتم كبير من الذهب ، يزينه فص من الياقوت الأزرق فى إصبعى ، وقد نقشت عليه حروف قديمة ، فسألته :

ـ هل يروق لك ؟

أومأ براسه إيجابا ، ومد يده إلى ، فنزعت الخاتم ، ووضعته فى راحته ، وراح يفحصه فى اهتمام ، ثم سألنى :

ـ هل تعرف معنى تلك الحروف القديمة ؟

هززت راسى نفيا ، فقرأ الكلمات فى هدوء :

ـ هدية من (سليمان) الحكيم إلى (بلقيس) ، ابنة الملوك والحكمة والجمال .

ضحكت قائلا :

ـ يا له من تقليد طريف !! لقد ابتعت الخاتم من صائغ فى (القاهرة) ، بجنيه ونصف فحسب .

تطلع إلى فى شك ، مغمغما :

ـ اتعنى انه مجرد خاتم مقلد ؟.. لا .. يبدو لى انك تسخر منى فحسب ، وإلا فمن صنعه مثقف للغاية ، حتى يخط عليه هذه النقوش العبرانية الدقيقة .

ران الصمت علينا لحظة ،ثم قلت :

ـ الواقع اننى قد حصلت عليه من سيدة تدعى (ام النجاشى) ، وهى تدعى انها حفيدة (سليمان) و (بلقيس) .

راح يفحص الخاتم مرة اخرى فى اهتمام ، ثم دسه فى احد جيوب صداره ، وابتسم قائلا :

ـ اهذه هى القصة كلها ؟

القيت نظرة جانبية على كابتن (اورم) ، ثم اعتدلت قائلا فى حزم :

ـ انا مستعد لان اقص عليك القصة كلها ، بشرط ان يقسم كابتن (اورم) بألا يعيد كلمة واحدة مما سيسمع على اذن احد .

قال (أورم) فى هدوء :

ـ ثق اننى اهل لثقتك يا سيدى .

بعثت كلماته ولهجته الطمأنينة إلى نفسى ، وبدات اروى لهما ، قائلا :

ـ حـدث ان اعتقلنى خليفة (مصر) خمسـة اعوام كاملة ، لخلاف بينى وبينه ، ولم يكد يطلق سراحى حتى سعيت للبحث عن ابنى (رودريك) ، الذى اختطفه رجال (المهدى) قديما ، ورحت اقضى عمرى متجولا فى صحارى (افريقيا) ، علنى اجد ولدى ، وقد باعه هؤلاء اوغاد كالرقيق ، إلى إحدى القبائل او احد التجار ، ولمـا كان ابنى موسيقيا موهوبا ، فقد كان تتبع خطواته امرا ميسورا ، ولقد علمت انه قد راح يتنقل من قبيلة إلى اخرى ، وقد اطلقوا عليـه لقب (مطرب مصر) ، لإتقـانه لفتهم ، والعزف على آلاتهم الوطنية ، وعلمت انه يستقر الآن وسط قوم من انصاف البرابرة ، يحملون اسم قبائل (الفنج) ، ويقيمون فى وسط (افريقيا) ، فتنكرت فى زى تاجر عربى ، وسافرت مع عدد من التجار إلى حيث (الفنج) ، وهناك تسلقت حائط احد معابدهم ، فى اثناء احد احتفالاتهم الدينية ، واستمعت إلى غنائهم .. ولسعادتى ميزت صوت

ولدى بينهم ، وتعرفته على الرغم من ثوبه الأفريقى ، والأعوام التى انقضت منذ فراقنا ، ولحظتها غلبنى انفعالى ، ودفعنى حنين الأبوة إلى أن أتناسى كل قواعد الحذر ، وأصرخ مناديا باسم ابنى (رودريك) ، وهنا ساد الهرج والمرج ، ولمحنى بعض (الفنج) فى مخبئى ، وانطلق عدد منهم نحوى ، فغلبنى الجبن ، واطلقت ساقى للرياح ، ورحت اعدو بكل ما املك من قوة ، وقد ارتشق احد السهام بين كتفى ، غير مبال بزئير الأسود فى الادغال ، ولا بالاحراش المظلمة ، ولكن فجاة انقض اسد على جواد يجاورنى ، واصابنى بالرعب ، وسقطت فاقد الوعى .

بدا الانفعال واضحا فى صوت (هيجز) ، وهو يسألنى :

ـ وماذا حدث بعدها ؟

اجبته :

ـ استعدت وعيى بعد اسبوع كامل ، ووجدت نفسى ارقد فى شرفة واسعة لمنزل انيق ، وإلى جوارى حبشية حسناء ، تعنى بجراحى ، وتداوى آلامى ، وعلمت فيما بعد أن (الفنج) قد انتقموا من قافلة التجار العرب ، الذين اندسست وسطهم ،

استعدت وعيي بعد أسبوع كامل ، ووجدت نفسي أرقد في شرفة واسعة لمنزل أنيق ..

واحرقوها عن آخرها ، وأن هؤلاء الذين انقذونى من الأسد هم ابناء قبيلة (أباتى) ، التى تعيش فى مدينة (إلمور) ، وقد نالوا نصيبا موفورا من المدنية ، ويبلغ تعدادهم ما يقرب من العشرين الف نسمة ، وهم يحيون فى رعب دائم من (الفنـــج) ، الذين يحملون لهم كراهية متوارثة ، ويمتلكون حصنا عجيبا جبليا ، ورثوه ايضا عن اجدادهم .

ســألنى (هيجز) ، وقد ملأت اللهفة حواسه كلهـــا :

ـ ثم ماذا ؟

تنهدت قبل ان أقول :

ـ بذلت اقصى جهدى لحض (الأباتى) على إعداد حملة ضد (الفنج) ؛ لإنقاذ ولدى من العبودية والرق ، ولكنهم ســخروا منى ، واعلنوا رفضهم التـــام لفكرتى ، فلم اجـد امامى ســوى ملكتهم (مجيدة) ، ابنة الملوك والجمال والحكمة ، وتظاهرت بالاهتمام بصحتها كطبيب ، وافضيت إليها بفكرتى ، فترددت طويلا ، ثم اخبرتنى ان لـ (الفنج) معبودا على هيئة (ابى الهول) ، ولكن راسه ليست على شكل راس إنسان ، وإنما هى راس كبش ضخم ، وهذا المعبود يدعى (هرمق) .

تمتم (هيجز) ، وهو يستمع فى اهتمام :

ـ هذا يعنى (إله الفجر) .

واصلت دون الالتفات إلى تعليقه :

ـ و (الفنج) يؤمنون إيمانا قاطعا بان تدمير هذا المعبود هو امر بالرحيل عبر نهر الجنوب العظيم .

سألنى (هيجز) فى اهتمام بالغ :

ـ اى نهر هو ؟

اجبته فى اهتمام مشابه :

ـ لم تذكر اسمه ، ولكنه احد روافد نهر النيل حتما ، او احد فروعه .. المهم اننى قد اقترحت عليها السعى لهدم ذلك المعبود ، فضحكت واخبرتنى انه شديد الضخامة ، فى حجم جبل صغير ، وليس من الهين هدمه بالايدى ، ثم إن رجالها قد فقدوا الكثير من شجاعتهم وباسهم ، وانهم قد استكانوا للعيش فى ارضهم الخصبة ، حتى يوافيهم الاجل وتطوى صحائفهم ، ولما سألتها عما إذا كانت هى قانعة بكل هذا الخضوع والخنوع ، اجابتنى بان الحزن يملأ قلبها وعقلها ، ويؤرق نومها ، ولكنها على اية حال امراة ، لا حول لها ولا قوة ، ثم حاولت قلب الامور ، فراحت تغرينى بكنوز اجدادها المخباة ، وتعدنى بجبل من الذهب والمجوهرات ، لو اننى

سعيت لهدم ذلك المعبود ، فأجبتها بأننى زاهد فى المال والثروة ، وكل ما أرغب فيه هو إنقاذ ولدى ، الذى يحيا كعبد بين (الفنج) ، فأصرت على موقفها ، وعلى انها لن تبذل جهدها او رجالها فى سبيل استعادة ولدى ، قبل ان يتم هدم ذلك المعبود ، وهنا رحت اشرح لها فوائد الديناميت ، وقوته ، وتأثيره ، وخواص غيره من المتفجرات ، فهتفت فى حماس ، تطالبنى بالعودة إلى بلادى ، وإحضار المواد اللازمة لهدم ذلك المعبود ، واثنين أو ثلاثة لمعاونتى ، وستمنحنى كنوز الأجداد كلها ، وتساعدنى فى استعادة وحيدى .

سألنى (اورم) :

ـ وماذا فعلت ؟

اكملت انا :

ـ منحتنى الملكة (مجيدة) الكثير من الذهب ، وعددا من الرجال والجمال ، وسلكنا دروبا خفية ، لا يعلم عنها (الفنج) شيئا ، وقطعنا عدة أميال فى الصحراء ، حتى بلغنا (اسوان) ، وهناك تركت الرجال والجمال منذ اسبوعين ، وهرعت إلى هنا ، لمعرفتى بمدى شغف صديقى (هيجز) بالآثار القديمة ، واردت ان امنحك ، إلى جوار الثروة ،

فرصة لتكون أول من يكشف مدنيات قديمة ، ضاعت فى غياهب المجهول ، وكل ما أطلبه الآن هو أن نجد رجلا خبيرا فى المفرقعات ، ياخذ على عاتقه مهمة هدم معبود (الفنج) .

ابتسم (هيجز) ، واشار بطرف غليونه إلى كابتن (أورم) ، قائلا :

ـ الامر اسهل مما تظن ، فها هو ذا كابتن (أورم) ، مهندس وكيميائى ، وخبير مفرقعات ، إلى جانب إجادته التامة للغة العربية منذ صباه .

تطلعت إلى الكابتن ، اسأله :

ـ هل ترضى بإقحام نفسك فى مثل هذه المخاطرة ؟

هز كتفيه ، مجيبا فى هدوء وبساطة :

ـ ليس لدى الآن ما يمنعنى من هذا .

سألته :

ـ ماذا تعنى بكلمة (الآن) ؟

تضرج وجهه بحمرة خفيفة ، لم تلبث أن تلاشت فى سرعة ، وهو يجيب :

ـ الواقع اننى كنت اتصور ، حتى امس فقط ، اننى قد ورثت ثروة عظيمة ، من عم لى ، توفى فى

جنوب (افريقيا) ، واليوم علمت انه كان قد تزوج من امراة ادنى منه مرتبة ، على نحو سرى ، وانجب منها ولدا ، هو وريثه الشرعى ولا شك ، ولكن هذا ليس السبب الوحيد لرغبتى فى ترك (إنجلترا) ، وإنما السبب الحقيقى هو ان المراة التى تصورت انها تحبنى ، وانني سأصبح زوجا لها ، قد صارحتنى اليوم بانها لن تتزوج ضابطا متقاعدا ، ضاع امله فى ميراث عمه .

بدا لنا الموقف حساسا ، فلم ننطق انا و (هيجز) بتعليق واحد ، احتراما لمشاعر الشاب ، الذى صمت بدوره ، فران على المكان صمت رهيب ، قطعه (هيجز) اخيرا فى صوت مرتفع ، وكأنما يدير دفة الحديث بعيدا عن موطن أحزان (اورم) :

ـ ما غرضك الحقيقى من هذا يا (آدمز) ؟

اجبته فى الم وانفعال :

ـ حاول ان تضع نفسك فى مركزى .. تصور ان ابنك الوحيد سجين مع قوم غلاظ النفوس ، قساة القلوب وانك قد عثرت عليه ، بعد ان نضج واشتد عوده ، فهل تتركه عبدا بينهم .

ـ اتنقذه بتعريض رقبتك للسيف ؟

ـ الابوة يا صديقى غريزة لا تقهر ولا تقارن ، ثم إن (مجيدة) قد وعدتنى بالمساعدة والمال ، ولما صارحتها بأن احدا لن يصدق قصتى ، منحتنى خاتمها للدلالة على صحة القصة ، ومنحتنى الذهب لشراء المال والعتاد ، وسألتنى الا يزيد عدد معاونى على ثلاثة ، فهل ترغب فى ان تكون احدهم ، ام ابحث عن غيرك ؟

تطلع إلى فى صمت ، وهو يشعل غليونه ، وينفث دخانه فى بطء ، ثم لم يلبث ان مال إلى الأمام بغتة ، وسألنى :

ـ الديك بعض الذهب الذى منحتك إياه ملكة (الاباتى) ؟

قلت وانا افتح حقيبتى الصغيرة :

ـ ها هو ذا .

ناولته بعض الذهب ، ففحصه فى اهتمام ، وبدا على ملامحه ان شكوكه قد تبددت ، وهو يقول لـ (أورم) :

ـ ما دام يحتاج إلى ثلاثة معاونين ، فلم لا نصطحب الجاويش (كويك) ؟

ثم التفت إلى مستطردا :

ناولته بعض الذهب ، ففحصه فى اهتمام ، وبدا على ملامحه أن شكوكه قد تبددت ..

ـ إنه معاون الكابتن ، منذ كانا معا فى الجيش ، وهو خبير الغام ومتفجرات ، ولقد كان ميكانيكيا قبل الحرب ، ثم إنه مخلص كتوم ، متين البنيان .

وبسرعة ، استدعى (أورم) الجاويش (كويك) ، الذى بدا لى واضح القوة والبأس ، وسأله الكابتن :

ـ ما رايك فى رحلة إلى وسط (افريقيا) يا (كويك) ؟

ضرب (كويك) كعبيه بعضهما ببعض ، شأن اى جندى محترف ، واجاب :

ـ لا راى لى يا سيدى .. إننى اذهب حيث يامر رئيسى ، ثم إن المتفجرات هى ابسط الأشياء التى اجيدها .

اصابتنا الدهشة ، وهتف (أورم) يسأله :

ـ كيف علمت هذا ؟

اجاب دون حتى ان يبتسم :

ـ ابواب المنازل القديمة هشة غير متماسكة يا سيدى ، وصوت مستر (آدمز) ليس من الأصوات التى تحجبها الجدران .

انفجرنا ضاحكين ، وقال (أورم) :

ـ إذن فلست تمانع فى مرافقتنا .. هل تدرك ما ستتعرض له من مخاطر وأهوال ، وما ستواجهه من احتمال عدم العودة مطلقا ؟

هز (كويك) راسه فى بساطة ، وقال :

ـ ليس احب إلى نفسى من المغامرة ، ثم إننا سنبحث عن ثروة ، وكل ما اطلبه هو ان احصل على خمسة فى المائة منها ، لو عثرنا عليها .

هتفت فى حماس :

ـ خذ عشرة فى المائة .

اجاب فى هدوء :

ـ تكفينى خمسة فى المائة يا سيدى ، ويمكننا ان نحرر عقدا بهذا ..

وبالفعل تم تحرير العقد ..

وبدات المغامرة ..

* * *

٢ ـ القـــط ..

ستة اســـابيع مضت ، ونحن نسير فى لجـة لا تنتهى من الرمال الصفراء ، التى لم تطأها قبلنا حتى قوافل البدو الرحل ، والشمس تشرق كل صباح بضوئها الأحمر من خلف التباب الشرقية ، وتختفى فى المساء خلف الكثبان الغربية ، ليصعد القمر ، ويغمر بحر الرمال بضوئه الفضى الساحر ..

واخيرا بدا لنا ذلك الجبل ، الذى هو معبـود (الفنج) ، الذى يواجه مدينتهم (هرمق) ، التى لا يتجاوز تعداد سكانها الخمسين الف نسمة ..

واخبرنا (القط) ، قائد قافلتنا ، أن للجبـال المحيطة بالمدينة مدخلا واحدا ، على مسيرة ثمانية أيام إلى الشمال ، وأنه لا سبيل لبلوغه هذه الأيام ، حيث تعترضه ـ فى هذا الوقت من السنة ـ بحيرة كبيرة ، يفيض منها نهر (أيبـور) ، ويتفرع إلى فرعين ، يحيطان بسهول (الفنج) كلها ، ولكن هناك وسيلة أخرى لبلوغ المعبد المقام على صخور شامخة ، الا وهى أن نترك الجمـال والأحمـال ، ونتسلق الجبل ..

وكان هذا مستحيلا ..

ولم يكن من المجدى ان نبلغ ذلك المعبود ، مخلفين وراءنا كل ما أحضرناه لتدميره ؛ لذا فقد سألت (القط) فى اهتمام :

ـ ما العمل إذن ؟

هز كتفيه فى لا مبالاة ، واجاب :

ـ ليس أمامنا سوى أن نسير ليلا ونختفى نهارا ، فمن عادات (الفنج) أنهم سيقيمون حفلا رائعا للربيع فى مدينتهم غدا ، ومع الفجر ينتقلون إلى معبدهم ؛ لتقديم القرابين لمعبودهم ، وهم يرفعون الحراسة فى تلك الساعات ، ليشاركهم الحراس احتفالاتهم ؛ لذا فالوسيلة الوحيدة هى أن نبلغ أول طريق (المور) ، مع ليلة الاحتفال بعيدهم ، وساخبر رجالى ؛ لإرسال من يرشدنا إلى الطريق وسط الظلام .

ـ وكيف يمكنك إبلاغهم ؟

ـ بإشارات الدخان .. ساحرق بعض الأعشاب ، وسيتصور (الفنج) أنها نيران أحد صيادى المنطقة .

ـ أليس فى ذلك مجازفة كبيرة ؟

ـ مجازفة ؟!!.. عجبا !!.. ما كنت اظن الإنجليز جبناء هكذا .

وهنا انفجر (هيجز) غاضبا :

– جبناء ؟!.. كيف تجرؤ على هذا القول ايها القذر .. انظر إلى هذا الجاويش .. إنه خادمنا ، واقلنا شانا ، ولكن ما بإصبعه الصغير من شجاعة يفوق ما تحمله منها قلوب قبيلتك كلها .

احتقن وجه (القط) غضبا ، ورفع راسه قائلا فى غلظة :

– انت تنطق هراء يا (هيجز) ، ولكن قولك هذا سيتغير كثيرا ، عندما تجد سيف (الفنج) فوق عنقك .

كاد (هيجز) يشتبك معه فى حوار عنيف ، إلا ان (اورم) تدخل قائلا :

– كفى .. اظن ان لدينا من المتاعب ما يغنينا عن المزيد منها .

ثم التفت إلى (القط) مستطردا :

– لا داعى للشجار يا رجل .. إنك قائدنا فى ساعات السلم ، وانا القائد عندما يحتدم القتال ، ونحن نسلمك قيادنا الآن ، فقدنا اينما وحيثما شئت ، وسنتبعك على الرحب والسعة .

ظهر الارتياح على وجه (القط) ، وكانما اعادت

إليه كلمات (أورم) كرامته ، فى حين راح هذا الاخير يطمئن على الإبل والجياد ، وذهبت أنا و (هيجز) و (كويك) إلى خيامنا ، فى محاولة منا لاختلاس قدر من النوم ، قبل أن تهاجمنا اسرابُ البعوض اللعينة ، وقبل أن أنعم بقدر كاف من النوم ، جاء الجاويش (كويك) ليوقظنى مع مغيب الشمس ، وليساعدنى على حزم أمتعتى ، ووجدته يقول فى قلق :

ـ لست اثق عادة فى القط الذى يبرز مخالبه هكذا ، فذلك الرجل يبدو لى ماكرا خبيثا ، يكره البيض ، ويتمنى لو نهلك قبل عودتنا من (المور) .

كان هذا شعورى ايضا فى الواقع ، إلا اننى رحت اعمل على تهدئة (كويك) ، وانطلقنا جميعا نقطع طريقنا تحت جنح الظلام ، حتى بلغنا خرائب المدينة المهجورة ، المطلة على الهاوية ، تحت صخور (المور) ، مع تباشير الفجر ، فحططنا الرحال ، وجلسنا نستريح ، وعندما اعتلت الشمس متن السماء ، امكننى رؤية مدينة (هرمق) العظيمة ، بمنظارى المقرب ، على بعد خمسة عشر ميلا .

كانت مدينة كبيرة ، منازلها كثيرة ، ذات اسقف بيض ، تحيط بها الحدائق من كل جانب ، وشوارعها واسعة ، واسواقها فسيحة ، وحول المدينة جدار

عال ، ترتفع فى أركانه ابراج عالية ، وبينها بوابات كبيرة ، وحول الجدار مراع ينبت فيها العشب الأخضر ، وتنتشر فيها قطعان الماشية والأغنام والجياد ، وعلى مقربة منها ما يشبه مدينات او قرى صغيرة ، من المستحيل ان يشيدها او يقطنها الهمج او البرابرة ..

وبقينا فى اماكننا ، ننتظر قدوم الليل ، لنكمل مسيرتنا نحو ارض (الفنج) ، ورحت اراقب (القط) ، وانا اتذكر حديث (مجيدة) عنه ..

قالت : « لا تخلو نفسى من الشك فى امره ، ولكننى استغل فيه دهاءه ومكره وجراته ، وعليك ان تتخذ كل الحذر منه ، فلست اطمئن إليه إلا لأننى احتفظ بزوجته واطفاله رهينة عندى ، واعده بمكافأة ضخمة مغرية ، لو ساعدكم على هدم معبد (الفنج) » ..

تذكرت كلماتها وانا اتطلع إلى وجه (القط) ، الذى يحمل كل ما يثير القلق فى النفوس ، حتى ان كلبنا الوديع (فرعون) كان يكرهه ، وينبح فى وجهه دوما ، بل لقد حاول مرة ان يغرس انيابه فى ساقه ، فبادله (القط) الكراهية ، ولم تكد علبة سم (الاستركنين) تقع فى يده ، حتى غمس فيها قطعة من اللحم ، والقاها إلى (فرعون) ، الذى كاد يلتهمها

بالفعل ، لولا أن شك (هيجز) فى ذلك التعاطف المباغت ، فأسرع يفحص قطعة اللحم ، ولم يكد يدرك مقصد (القط) حتى نشبت بينهما معركة بالأيدى ، كادت تنقلب إلى معركة طاحنة بيننا وبين رجال (القط) ، لولا أن تدخل الكابتن كالمعتاد ، وأنهى الصراع ، وجعلهما يتصافحان ، ولكننى ظللت واثقا من أن نفس (القط) لم تهدأ تجاه (هيجز) ، وأن حقده عليه سيتضاعف مع مرور الأيام ..

توقفت عن اجترار الأفكار والذكريات مع مقدم الليل ، حيث عاودنا السير ، يتقدمنا دليل من (الأباتى) ، يحفظ كل شبر فى الطريق ، وبعده كابتن (اورم) والجاويش (كويك) ، يقودان الإبل المحملة بالمفرقعات والمتفجرات ، وأنا خلفهما للمراقبة والحراسة ، وخلفى جمال القافلة الأخرى ، ثم فى المؤخرة يسير (هيجز) و (القط) ، بصحبة اثنين من (الأباتى) ..

ولقد اصر (القط) على السير فى المؤخرة ، حتى لا تنسب إليه اية اخطاء قد تقع فيها ، وصحبه (هيجز) ، ليدلل على صفاء نيته وطيب طويته تجاهه ..

وفجأة هطلت الأمطار فى عنف ، وراحت الرياح

تزار وتعوى ، إلا اننا لم نتوقف وإنما واصلنا سيرنا في إصرار وصمت ، طيلة ثلاث ساعات ، حتى واجهتنا اضواء (هرمق) ، وسمعنا همسا يدعونا للتوقف ، ثم لم نلبث ان تبينا ان صاحبه هو احد الوطنيين من (الإباتى) ، الذين ارسلهم (القط) لاستطلاع الطريق ، وقد عاد ليخبرنا ان عددا من فرسان (الفنج) يسدون الطريق ، وانه من الضرورى ان نتوقف قليلا ، حتى ينتقلوا إلى مكان آخر ، ويفسحوا لنا السبيل ..

واتجه (القط) إلى المقدمة ، ليستطلع ما حدث ، ولم يكد كلبنا (فرعون) يشتم رائحة عدوه ، حتى انطلق ينبح فى شراسة ..

وانطلق (القط) يعدو ..

واضطربت الجمال لعدوه ، وانطلقت تعدو بدورها ..

وجفل قادة الجمال ، عندما راوا (القط) يقفز فوق احد الجمال ، ويركض به هاربا ..

وهنا التفت إلينا فرسان (الفنج) ..

وهبط قلبى بين ساقى ، عندما رايتهم يرفعون مشاعلهم ، ويتجهون إلينا ..

وكانت لحظات مخيفة ..

* * *

لم ندر كيف فعلنا كل هذا ..

لقد قفزنا كلنا فوق ظهور الجمال ، وتركناها تعدو بنا بسرعة البرق ، دون ان نحدد هدفنا او اتجاهنا ..

لا ريب ان الذعر ، ذلك الذى جعلنا نفعل كل هـذا ..

إنه اقوى محـرك لمن هـو فى مثـل موقعنا او ظروفنا ..

المهم ان الجمال راحت تعدو مبتعـدة ، ونحن نسلمها قيادنا تماما ، حتى خفت سرعتها ، إلى أن راحت تسير تحت قباب عالية ، وتوقفت كلها فجأة ، فهبطنا عن ظهورها ، وربطنـا بعضها إلى بعض ، واوينا إلى برج عال ، نتقى به الأمطار الغزيرة ، وقد اطمانت قلوبنا إلى ان مطاردينا قد فشلوا فى تتبع خطانا ، فتراجعوا إلى مواقعهم ..

لحظتها كشفنا اختفاء (هيجز) ..

واصابنا هذا بالذعر ..

إننا لم نلحظ هذا ونحن نعدو هاربين ، ولم ننتبه حتى إلى ما حدث ..

هل تبع (القط) فى فراره ، ام فشل فى اعتلاء جمله مثلنا ، فاوقع به فرسان (الفنج) ؟!

حرنا فى البحث عن الجواب ، وغلبنا الحزن والنوم ، فرحنا فى سبات عميق ، لم نستيقظ منه إلا عند الفجر ، فوجدنا ان الامطار قد انقطعت ، وكشفت السماء الصافية ، التى تتالق فيها بقايا النجوم ، التى يبدو ضوء الشفق بريقها تدريجيا ..

ورفع كابتن (اورم) راسه إلى اعلى ، وهو يقول :

ـ تعالوا نستكشف ذلك المكان ، ونصعد فى هذا الدرج هناك .

رحنا نصعد فى درجات السلم المرتفع ، حتى وجدنا انفسنا على قمة احد ابراج سور مدينة (هرمق) ، نطل على واد فسيح يتوسطه تمثال حيوان بالغ الضخامة ، يشبه تمثال (ابى الهول) ، ووجدت نفسى اهتف فى انفعال :

ـ إنه معبود (الفنج) .

غمغم (اورم) فى حزن :

ـ كم اتمنى لو أننى انا الذى لقى مصرعه ، بدلا من (هيجز) ، حتى لا يحرم رؤية ذلك الاثر الهائل .

وصمت لحظات ، ابتلع خلالها حزنه ، قبل ان يضيف :

ـ هيا نهبط ، فقد يمكننا الفرار ، قبل أن ينقشع ضباب الفجر .

أجبته فى انفعال :

ـ انتظر .. انظروا إلى تلك الصخرة هناك .. تلك التى تربض فوقها النسور ، والتى يحيط بها الضباب .. إنها الصخرة البيضاء ، التى قال (القط) إنها بداية سلسلة الجبال ، التى تنتهى فى (المور) .. هيا نتجه إليها ، فقد يكون هذا هو فرصتنا الوحيدة للنجاة .

هبطنا إلى حيث تركنا الجمال ، ورحنا نفحص ابواب جدار (هرمق) الضخم ، ووجدناها من النحاس والبرونز ، وقد علاها الصدأ ، وهى مغلقة من الداخل ، وبها فجوات منتظمة ، يستخدمها ـ ولا شك ـ فرسان (الفنج) ، فى إطلاق سهامهم على الأعداء ..

وانحنيت لألقى نظرة عبر إحدى الفجوات ..

ثم تراجعت فى رعب ..

لقد كان هناك بعض فرسان (الفنج) ، يندفعون نحونا ، والشر يطل من عيونهم ، فصرخت مذعورا :

ـ الفرسان يهاجموننا .

انطلقت أعدو نحو الجمال ، فى حين راح (أورم) و (كويك) يصليان فرسان (الفنج) نيران بندقياتهما ، حتى سقط نصف الفرسان صرعى ، وفر النصف الآخر ، إلا أننا لم نلبث أن فوجئنا بفريق آخر من الفرسان ، يعتلى الأسوار ، ويهاجمنا مطلقا علينا السهام فى شراسة ، فقال (كويك) فى حزم :

ـ اتركوا لى امرهم .. سألقن هؤلاء الأوغاد درسا .

قالها وتسلل كقط حذر نحو الأسوار ، ورايته يدس احد الغامه فى قاعدة السور ، ثم يتراجع فى خفة ، هاتفا :

ـ أسرعوا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى دوى انفجار رهيب ، وسقط بعض (الفنج) قتلى ، فى حين جفلت جياد البعض الآخر ، وراحت تعدو متراجعة ، فى حين انطلقنا نحن على ظهور الجمال ..

وصاح أحد (الاباتى) فى ذعر :

ـ إنهم يطاردوننا ..

التفت لأجد فريقا من (الفنج) يطاردنا ، ولم اكد اعتدل حتى رايت جيشا من الفرسان ينقض علينا ..

لقد وقعنا بين المطرقة والسندان ..

وهوى قلبى رعبا ويأسا ، لولا أن هتف كابتن (أورم) :

ـ يا إلهى !.. هؤلاء الذين أمامنا ليسوا من (الفنج) .

اسرعت اضع منظارى المقرب على عينى ، واتطلع إلى حيث يشير ، فوقع بصرى على اعلام (الاباتى) الخضراء ، وعليها تلك الكتابات العبرانية ، التى تتوسطها صورة عرش (سليمان) ..

واسرعنا نحو فرسان (الاباتى) ، ولم نكد نبلغهم حتى برزت من بينهم امرأة فى نقاب ابيض ، وثوب ناصع البياض ، وسألتنى بلغتهم :

ـ من القائد هنا ؟

اشرت إلى (اورم) ، الذى يكاد يسقط من فوق جمله ، من شدة الإجهاد والإعياء ، فخاطبته فى لهجة تشف عن اصلها النبيل :

ـ ماذا حدث يا سيدى ؟

سألها فى حزم :

ـ هل لى ان اعلم اولا من اخاطب ؟

رفعت راسها فى اعتزاز ، وهى تقول فى ترفع :

ـ أنا الملكة (مجيـدة) ، ابنة الملوك والحكمـة والجمال ، وشعارى على جبينى ينطق بصدقى ..

ورفعت النقاب عن وجهها الفاتن الساحر ..

وتراجع (أورم) مبهوتا ..

بل مشدوها ومسحورا ..

لقد رأى امامه حورية من حوريات الجنة ..

رأى حفيدة (سليمان) ..

* * *

٣ ـ السلطان ..

يمكن القول ، دون ادنى قدر من المبالغة : ان (مجيدة) قد سحرت (اورم) تماما ..

لقد رايته وقد نسى كل تعبه وإجهاده ، وهو يحدق فى وجهها الفاتن ، وجمالها الطاغى ، قبل ان يتمتم مبهورا مشدوها :

ـ اانا فى حلم ؟!.. آمراة هى ام حورية من حوريات الجنة ؟

سالتنى (مجيدة) فى حيرة :

ـ ماذا يقول صاحبك ؟

ترجمت لها حديثه بكل امانة ، فتضرج وجهها بحمرة الخجل ، واسرعت تسدل النقاب على وجهها فى حياء ، فتنحنح الكابتن حرجا ، واعتدل قائلا فى حزم ، بدا وكانه محاولة للسيطرة على مشاعره :

ـ يجب ان نعجل بالهجوم على (الفنج) قبل ان يستعيدوا جاشهم .

ولكن (مجيدة) اجابته فى هدوء ، باللغة العربية التى يجيدها (اورم) :

ـ يجب ان استشير مجلسى اولا .

ثم التفتت مستطردة فى لهجة آمرة :

– اين عمى الامير (جوشيا) ؟

وتقدم نحوها فارس شاب ، متين البنيان ، يرتدى حلة شرقية ثمينة ، ودرعا وخوذة كفرسان الغرب ، وسالته (مجيدة) :

– لقد تهدم جزء من السور كما ترى ، افتجدها فرصة مناسبة لغزو (الفنج) ، ام انه علينا ان ننتظر ، حتى يهاجمونا هم .

حدق فى وجهها بدهشة ، وهتف مستنكرا :

– هل اصابك الجنون يا ابنة الملوك ؟.. إننا لا نزيد على خمسمائة رجل ، اما هم فعددهم يربو على العشرة آلاف .

هتفت غاضبة :

– ولكننى ارغب فى مهاجمتهم ، فمن يتبعنى ؟

صاح بعض رجالها يؤيد قولها ، إلا انها اضافت فى مرارة :

– يؤسفنى الا استطيع هذا فعلا ، فرجالى لم يخلقوا للحرب والقتال .

سرت همهمة غاضبة بين رجالها ، واستل عمها سيفه ، هاتفا فى صوت جهورى :

ـ انت تعرفين مدى شجاعتى وجراتى ، وتعلمين كم قتل هذا السيف من (الفنج) و ...

قاطعه (اورم) فى صرامة :

ـ اعد سيفك إلى غمده يا رجل .

بدا العناد على وجه الرجل لحظة ، لولا ان ظهر ثلاثة من فرسان (الفنج) يتجهون إلينا ، وقد اخفى احدهم وجهه بقناع ابيض ، به ثقوب للعينين والفم ، فتراجع (الاباتى) فى خوف وقلق ، فى حين بقيت (مجيدة) قوية متماسكة ، وهى تقول فى حزم :

ـ إنهم رسل (الفنج) دعنا نر ماذا يريدون .

اقبل الفرسان الثلاثة ، حتى توقفوا امامنا ، والقوا علينا التحية فى ادب واحترام ، ثم قال احدهم :

ـ لقد اتينا يا (ام النجاشى) وابنة (سليمان) ، لنتحدث إلى البيض الثلاثة ، الذين قتلوا العديد من رجالنا ، وهدموا احد اسوارنا ، وارسلوا البرق والرعد إلى صدور فرساننا .

سالته (مجيدة) فى ترفع :

ـ ماذا تريدون منهم ؟

اجابها :

ـ لقد سقط رابعهم اسيرا لدينا ، وحكم عليه كهنتنا بالموت ، ولكننا مستعدون للإبقاء على حياته ، كما فعلنا مع (مطرب مصر) وكاهن (هرمق) ، مقابل أن ينضم البيض الثلاثة إلينا ، لا إليكم .

قال (اورم) فى حزم :

ـ إننا نشكر سلطانكم على عرضه هذا ، ويؤسفنا ان اضطررنا لقتل عدد من رجاله ، دفاعا عن انفسنا ، ونحن نعترف بأن (الاباتى) قوم جبناء ، ولكن ملكتهم إمراة عظيمة ، كبيرة القلب ، ولقد وصلنا هنا على متن جمالها ، وبغرض خدمتها ، وهذا يضطرنا لرفض عرض سلطانكم ، مع عظيم الأسف .

هز الرجل راسه متفهما ، عندما استمع إلى رد (اورم) ، ثم التفت إلى (مجيدة) يقول :

ـ سلطاننا العظيم (بارونج) يوجه إليك الدعوة نفسها ، وانت تعلمين ما يحمله لك من احترام وتقدير وتوقير ، وهو يدعوك إليه على الرحب والسعة ، ويعدك بأن يضعك على راس زوجاته ، أو يترك لك حرية الزواج بمن تشائين .

قال عبارته الاخيرة ورمق (اورم) بطرف خفى ، وكأنما يعنيه بها بالذات ، قبل أن يتابع :

ـ اتركى قومك الجبناء وانضمى إلينا ، يفتديك رجالنا بارواحهم ، فلقد اديت واجبك على خير ما يرام ، ولولاك لصار شعبك ملكا لنا منذ سنوات ، ونحن نعلم انك قد لجات إلى هؤلاء البيض ؛ ليهدموا معبودنا بسحرهم ، بعد ان وعدتهم بكنوز وذهب ملوكنا الاقدمين .

سالته (مجيدة) فى خفوت :

ـ من اخبرك بهذا ؟.. اهو اسيركم الابيض ؟

هز الرجل راسه نفيا فى هدوء ، وقال :

ـ لا يا (أم النجاشى) ، بل هو (القط) .. والآن ما جوابك يا زهرة (المور) ؟

اعتدلت (مجيدة) فى مجلسها ، فوق صهوة جوادها ، وبدت لى على ما اروع ما تكون ملكة ، وهى تقول فى حزم :

ـ لقد اقسمت بشرفى أن احمى (المور) حتى النهاية .

ابتسم الرجل وقال :

ـ لن تحنثى بشرفك يا زهرة (المور) .. سينقى ملكنا هذه المنطقة من الجبناء ، ثم يوليك عليها مرة اخرى ، فتصبحين ملكة على ارض تتيهين ببسالة فرسانها .

وفجأة رفع الفارس المقنع قناعه ، والقاه على الارض بحركة سريعة ، وبدت ـ لاول مرة ـ اساريره النبيلة ، وبشرته النحاسية ، ووجهه الذى يشف عن سنوات عمره المقاربة للخمسين ، وقد اطلق لحيته ، وتألقت قلادة فرعونية قديمة على صدره ، فترجل الفارسان الآخران عن جواديهما ، وسجدا امامه هاتفين :

ـ (بارونج) .. (بارونج) .

وأمام فيض الهيبة المتدفق من الرجل ، لم نملك إلا ان نحييه فى احترام بالغ ، ولم يسع (مجيدة) سليلة الملوك إلا ان تنحنى له ، فرد تحيتنا برفع رمحه فى عظمة وهيبة ، قبل ان يقول :

ـ لقد سمعت يا (أم النجاشى) و (زهرة المور) ويا رجال الغرب ما قاله خادمى بأمر منى ، ويؤسفنى مطاردة رجالى لكم ، فما يليق بفرقة كاملة من الفرسان ان تطارد أربعة رجال ، ولكننى امد لكم يدى ، وأرجو سليلة الملوك ان تقبل صداقتى ، فلست احب ان اتورط فى مقاتلة جيش ضئيل من الرعاديد ، لا يستحق سوى الازدراء او الشفقة ، وإلا فإننى سأنتقم لهدم معبدى ومعبودى شر الانتقام ، وسيكون الأسير الأبيض كبش الفداء .

ضربت (مجيدة) مقدمة سرجها بقبضة يدها ، وصاحت :

ـ محال يا (بارونج) .. لن اخضع لكم واعبد معبودكم ، متخلية عن دينى الحق ، الذى آمن به (سليمان) وحفدته .. إنه من المستحيل أن تخضع عقيدة حقة لصنم قد من حجر ، اما رعيتى ، التى اعترف بجبنها وخنوعها ، فإننى افضل لها موتا شريفا ، على حياة هى الرق والعبودية والجحيم ، وانتقامك لمعبودك لا يهمنى او يردنى ، ما دمت احطمه فى سبيل الله (سبحانه وتعالى) ، خالقى وإلهى .. واذبحنى لو ان هذا قدرى .

وصمتت لحظة ، ثم اضافت فى حزم :

ـ هذا جوابى كملكة لشعب يدين لها بالولاء ، اما كامراة ، فانا اشكر لك عواطفك وادبك الجم .

ران الصمت لحظات ، ثم سالها السلطان :

ـ اهذا جوابك النهائى ؟

رفعت راسها فى اعتزاز ، وهى تقول :

ـ نعم .. وبقى ان اعلن هؤلاء الأصدقاء البيض أننى احطم من وعدهم ، فلا معنى لأن يلقوا بايديهم فى التهلكة ، فى سبيل حرب خاسرة ، واذكرك بانك

قد ضمنت لهم الحرية والإبقاء على حياتهم ، لو انضموا إليك ، وكذلك على حياة زميلهم الرابع ، الذى تحتفظون به اسيرا ، ثم إن لديك اسيرا آخر ، تطلقون عليه اسم (مطرب مصر) ، هو فى الواقع ابن احدهم ، ولست اظنك تضن بالولد على والده .

توقفت منتظرة جواب السلطان ، ولكنه بقى صامتا ، يتطلع إليها ، فالتفتت إلينا مستطردة :

– اذهبوا إليه أيها الاصدقاء ، واشكر لكم رحلتكم الطويلة من اجلى ، وسارسل لكم هدية ضخمة من الذهب ، وربما التقينا فى حرب قريبة .. الوداع أيها الاصدقاء .

كان من الواضح انها ترقبنا من خلف نقابها فى اهتمام شديد ، وكانها تنتظر معرفة ردود افعالنا ، وكذلك راح السلطان يراقبنا بنفس الاهتمام ، متخللا شعر لحيته الكثة باصابعه ، حتى قال كابتن (أورم) :

– يمكننى ان اتحدث عن نفسى ، وعن الجاويش (كويك) ، فاقيد نفسينا بالوعد الذى قطعناه للملكة ، وارفض بكل اسف عرض السلطان ، فنحن نرى ان هذه الملكة الشجاعة تناضل من اجل شعبها ودينها ، ونحن نقدر كثيرا مثل هذه الحروب .

كان من المؤلم والعسير بالنسبة إلى أن اتخذ قرارى ، فقد كان يعنى التضحية تماما بولدى ، من اجل التمسك بوعد لامراة تحكم شعبا من الجبناء ، ولكن السلطان لم ينتظر جوابى ، وإنما قال فى اسف :

ـ كم تمنيت لو جاء جوابكم بغير هذا ، ولكن يبدو انكم تحترمون الوعود كثيرا ، وتضحون بكل مرتخص وغال فى سبيل ذلك ، على اية حال استودعكم الله ، متمنيا لو ان (مجيدة) تحكم شعبا آخر ، غير هذا القطيع من الجبناء ، الذى لا يستحق شيئا من مزاياها العظيمة .

ثم مد يده إليها ، قائلا :

ـ هاتى يدك يا (أم النجاشى) .. سأعود بك إلى قومك .

ناولته كفها الرقيقة ، فقادها فى رفق إلى حيث قومها ، ولم يكد يقترب منهم حتى انقض عليه بغتة العم (جوشيا) مشهرا سيفه ، وخلفه بعض الرجال ، وهو يصيح :

ـ لقد وقعت يا (بارونج) .. اخضع لنا او نقتلك .

كان السلطان قد تخلى عن سلاحه ، تعبيرا عن

ولم يكد يقترب منهم حتى انقض عليه بغتة العم (جوشيا) مشهرًا سيفه ، وخلفه بعض الرجال ..

حسن نيته ، وهو يقود (مجيدة) إلى قومها ، لذا فقد احتقن وجهه غضبا ، وهو يصيح :

ـ أيها الجبان الخنزير .. لو أنني احمل سيفي للقى احدنا مصرعه حتما ..

ثم التفت إلى (مجيدة) ، مستطردا :

ـ هذا الخلق الوضيع يشف عن جبن ، هو سر احتقارنا لشعبك هذا .. أترين كيف يحاربون رجلا اعزل ؟

صرخت (مجيدة) فى عمها حانقة :

ـ اخفض سلاحك هذا يا (جوشيا) .. إنك تجلب لنا العار بأسلوبك المشين هذا .

ولكن (جوشيا) هتف فى عناد :

ـ الصيد اثمن من أن اتركه بهذه البساطة .

مال الكابتن على اذنى ، هامسا :

ـ سامنع هذه الخدعة القذرة ، وساطلق النار على راس (جوشيا) القذر هذا ، لو هم بمس السلطان بادنى سوء .

لم يكد الجاويش (كويك) يستمع إلى حديثنا حتى وضع الفكرة موضع التنفيذ على الفور ، واطلق النار بين قوائم جواد (جوشيا) ..

وجفل الجواد مذعورا ..

وسقط (جوشيا) أرضا ..

وفى غمرة الهرج الذى حدث ، اندفعنا نحو السلطان ، واحطنا به وبجواده إحاطة السوار بالمعصم ، حتى أخرجناه من وسط الحصار ، وسلمناه إلى حارسيه ، اللذين كاد قلباهما يتوقفان من شدة خوفهما على سلطانهما ، الذى قال لنا فى امتنان :

ـ إننى ادين لجراتكم وشجاعتكم بحياتى .

ثم نزع قلادته الفرعونية الذهبية القديمة ، ووضعها حول عنق الجاويش (كويك) ، وانطلق على جواده عائدا إلى حصنه ، بصحبة حارسيه ..

وهتفت (مجيدة) فى صرامة :

ـ سنتخذ طريق العودة .

وكالكلاب المذعورة ، وضع رجالها اذنابهم بين سيقانهم ، واطاعوها صاغرين ..

وكان علينا أن نبدا مرحلة جديدة ..

ومخيفة ..

* * *

٤ ـ مدينة الملكة ..

لم نكن نتصور ابدا ان طريقنا من السهول إلى مرتفعات (المور) وعر على هذا النحو ، فقد كان الصعود اشق مما يمكن تصوره بكثير ، فالواضح ان هذا الطريق لم يصنعه بشر ، وإنما صنعه تدفق المياه من المرتفعات إلى البحيرات ، التى كانت تغطى فيما مضى السهول كلها ، قبل ان تقتصر على مساحة محدودة من الماء ، لا يتجاوز طولها الخمسة والعشرين كيلومترا ، ولا يزيد اتساعها على الخمسين كيلومترا ..

وهذا الطريق يتسع فى بدايته ، بحيث يسمح بسير ثلاثة جياد متجاورة ، ثم لا يلبث ان يضيق ، حتى يكاد لا يتسع إلا لجواد واحد ، وترتفع على جانبى الطريق حوائط صخرية إلى عدة مئات من الأمتار ، وتبدو السماء فوقها كشريط ازرق ، وتعجز الشمس عن إلقاء ضوئها وسط ظلمة الممر ، إلا لحظات معدودات ، فى منتصف النهار ...

وبين حين وآخر يختفى احد الجدارين ، تاركا هوة سحيقة ، تتجاوزها الجياد وهى ترتجف ، عبر شريط الممر الضيق ، هذا إلى جانب عشرات

البوابات ونقاط الحراسة ، التى تضافرت مع عوامل الطبيعة ، لتمنع (الفنج) من غزو بلاد (الأباتى) ، على الرغم من جبن وضعف الفئة الأخيرة ..

وسار بنا الموكب العجيب ، يتقدمه نبلاء (الأباتى) على صهوات جيادهم ، تليهم فرقة مسلحة ، تتوسطها الملكة (مجيدة) ، ثم الحاشية والضباط ، ونحن بينهم ، وفى النهاية فرقة مسلحة اخرى ، عليها حماية المؤخرة طيلة الوقت ، حتى بلغنا بوابة (المور) فى نهاية النهار ..

وكان المشهد رائعا ..

سلسلة من جبال تحيط بسهول واسعة ممتدة ، تناثرت فيها المزروعات والنباتات واشجار النخيل ، وبينها اقيمت بيوت ومنازل متناثرة ، تحيط بكل منها حديقة انيقة ، وعلى مدى البصر هناك بحيرة فضية ، التفت حولها اكواخ الرعاة والزراع ، على نحو يؤكد ان (الأباتى) ، على الرغم من عيوبهم ، فلاحون وزراع مهرة ..

واستقبلتنا جماهير المدينة استقبالا حافلا ، وراحت تهتف بحياة الملكة والقواد ، حتى بلغنا القصر الملكى ، ذا القباب الذهبية ، الذى اتيحت

لى زيارته من قبل ، ولم يكد يستقر بنا المقام فيه ، حتى سأل (جوشيا) (مجيدة) فى غلظة :

ـ هل سيقيم ضيوفك فى مساكن الحجاج بالمدينة الغربية ؟

كان يتحدث بأسلوب استفزازى متعمد ، إلا أن (مجيدة) بدت هادئة ، وهى تجيبه فى بساطة :

ـ لا يا عماه .. سيقيمون هنا فى قصرى .. فى جناح الضيوف .

احتقن وجهه غضبا ، وهو يهتف مستنكرا :

ـ فى قصرك ؟!.. محال .. محال .

سألته فى ضيق :

ـ لماذا يا عماه ؟

أجابها فى سخط :

ـ انسيت انك لم تتزوجى بعد ، وانى لا اقيم بالقصر لأسهر على حمايتك ؟

أجابته هى فى حزم :

ـ لم انس هذا ابدا ، ولكننى استطيع السهر على نفسى ، وارى انه من الواجب ان يقيم ضيوفى فى مكان آمن ، إلى جوار امتعتهم .. اذهب انت لتحصل على قدر من الراحة ، وسارسل لك طبيبى

الخاص ، ولا تنسى أن تشكر الله على نجاتك من المهالك .

امتقع وجه (جوشيا) لتلك السخرية المغلفة بإطار مهذب أنيق ، وبدا وكأنه سيجيب بعبارة فظة ، لولا أن غادرت (مجيدة) المكان فى خطوات سريعة ، فضرب قبضته فى الحائط فى غيظ ، وانصرف خلفها ناقما حاقدا ، ولم ينس فى انصرافه أن يرمق الجاويش (كويك) بنظرة قاسية ، تشف عن حقده الخاص نحوه ؛ لأنه المتسبب فى وقوعه من فوق صهوة جواده ، وإصابة ضلوعه بتلك الكدمات ..

ولكن هذا لم يقلق (كويك) كثيرا ..

لقد كان هناك امر آخر يقلقه ..

امر الكابتن (اورم) ، الذى كان قد اصيب بجرح سطحى ، فى اثناء نسف سور (الفنج) إلا ان تلوث هذا الجرح قد اصابه بحمى ، راحت تتزايد تدريجيا ، حتى اشتدت وطأتها عليه مع بلوغنا القصر ، فلم يكن منا إلا ان نقلناه إلى فراشه ، ورحت اداويه بالماء واللبن ، حتى يشفى من الحمى ..

ولقد اهتمت الملكة (مجيدة) بأمره كثيرا ، وارسلت تسأل عن صحته مرتين ، طوال الليلة

التى سهرتها إلى جواره ، ولم تكد تشرق الشمس حتى اصطحبت طبيبها الخاص إلى حجرة (اورم) ، وسألتنى فى قلق :

ـ هل سيحيا ؟

اجبتها فى خفوت :

ـ لا يمكننى البت فى هذا الأمر حتى الآن ، فانا اخشى ان يصاب بالتسمم من تلوث الجرح .

ادهشنى ان تمتمت فى جزع :

ـ انقذه ارجوك .. ابذل ما بوسعك لاجله ، وسامنحك كل ما تطلب .

ثم انتبهت فجأة إلى لهفتها البالغة ، فاضافت فى خفوت :

ـ اغفر لى ، فلقد نسيت انه صديقك ، وانك لا تدخر جهدا لمداواته .

طمانها قائلا :

ـ سابذل اقصى جهدى يا مولاتى .. اطمئنى .

اما طبيبها ، فقد راح يتبارى معى فى وصف انواع من الدواء والعلاج ، لو تناول منها (اورم) جرعة واحدة لقضى نحبه على الفور ، لولا ان رحت استبدل بها انا ادوية اخرى منطقية ..

ومرت ثلاثة ايام بطيئة ، امتلأت فيها نفوسنا بالشك والقلق ، إلا ان الكابتن لم يلبث ان تماثل للشفاء ، ولم تقو الملكة على كتمان سعادتها وسرورها بذلك ، وراحت تولى (اورم) المزيد من العطف والحنان ، حتى انه لم يكد يغادر فراشه سليما معافى ، حتى راح يختلى بها كثيرا ، ويتبادل معها الاحاديث الهامسة ، مما اصابنى بالقلق ، فقلت له مرة :

ـ حذار يا صديقى .. من الخطر على شاب مثلك ان يوثق صلته بالملكة .

قهقه ضاحكا ، وقال :

ـ اطمئن يا صديقى ، فقوانين هذه المملكة تحتم زواج الملكة من احد اقاربها ، ومن المستحيل أن ترتبط بى أنا .

ثم اضاف فى جدية واهتمام :

ـ قل لى : هل بلغنك اخبار عن (هيجز) أو ولدك (رودريك) ؟

قلت فى ضيق :

ـ يلوح لى انه من الاجدى ان تبلغنى انت ما لديك من اخبار ، فأنت لصيق بالملكة ، وتعلم عنها ما يجهله حتى عمها .

ابتسم وأجاب :

– لقد ابلغتنى ان كليهما فى صحة جيدة ، وانهما يعاملان معاملة حسنة ، ولكن السلطان (بارونج) يعزم التضحية بـ (هيجز) بعد اسبوعين ، وانا اعتزم بذل حياتى ، لو اقتضى الامر ، فى سبيل منع هذا .

وصمت لحظة ، ثم اضاف :

– وهذا هو محور احاديثى الهامسة مع (مجيدة) ، بخلاف ما تصورت انت .

قلت فى اهتمام :

– يجب ان نتحرك على الفور ، فقد تم لك الشفاء ، ولم يعد هناك مبرر للتلكؤ .

قال فى حماس :

– سابذل اقصى ما يمكننى لتخليص (هيجز) ، حتى لو اقتضى الامر ان ابذله بنفسى ، عند سلطان (الفنج) .

ومال على ، مستطردا بمزيد من الحماس :

– استمع إلى .. ستعقد (مجيدة) مجلسها الاكبر بعد ثلاثة ايام ، وستحاكم خلاله (القط) ، واغلب الظن انها ستحكم عليه بالإعدام ، وبعدها

سنعرض ما لدينا ، لنصل إلى قرار حاسم .

واعتدل فى حزم ، مستطردا :

ـ ولنبدأ عملية الإنقاذ .. مهما كان الثمن ..

ودوت العبارة الاخيرة فى راسى ..

« مهما كان الثمن .. »

وارتجف جسدى فى خوف ..

* * *

٥ ـ الحياة والموت ..

لم يرق لى ابدا ذلك الاسلوب ، الذى حضرنا به مجلس الملكة ، بعد مرور تلك الأيام الثلاثة ..

لقد قادنا الحرس إلى المجلس ، كما لو اننا نحن السجناء ، ووجدنا المئات من (الاياتى) هناك ، وقد جلسوا فى صفوف منتظمة ، امام (مجيدة) ، التى جلست على عرش من ذهب ، ينتهى ذراعاه براسى أسدين ، وهى ترتدى ثوبا من خيوط الفضة اللامعة ، وتخفى وجهها بقناع موشى بنجوم فضية ، وقد احيطت قمة راسها بدائرة من الذهب ، تتوسطها ياقوتة حمراء ساطعة ..

وعلى الرغم من جسدها الضئيل ، بدت زهرة (المور) فاتنة ، ساحرة ، مهيبة ، وقد وقف جنودها المدججين بالسلاح خلف عرشها ، فى حين أحاط بها قوادها وضباطها وقضاتها ، فى ثيابهم الرسمية الأنيقة ، وعدد من وصيفاتها فى أبهى حللهن ..

وطالت محاكمتنا ، وانكر (القط) التهم الموجهة إليه ، وتم استدعاؤنا للشهادة ، وفى النهاية صدر الحكم بإعدام (القط) ، جزاء خيانته ، ومصادرة ممتلكاته ، وان تصبح زوجته واولاده عبيدا ارقاء ..

كذلك صدر الحكم على كل من شارك (القط) فى مؤامراته بالتجرد من الأملاك ، والالتحاق بالجندية ..

وانتهت المحاكمة بين نحيب وعويل المتهمين واقاربهم ، واصابتنا الدهشة من اساليب (الاباتى) واحكامهم ، وهتف الكابتن مستنكرا :

ـ اى خير فى امة يعاقب مجرموها بالجندية بدلا من السجن .

غمغمت محاولا تهدئته :

ـ هكذا اساليبهم .

هز راسه فى قوة ، مستنكرا ومعترضا ، إلا انه لزم الصمت ، ولم يشر إلى هذا الأمر مرة ثانية ، حتى حانت الاستراحة ، فتقدمت نحو سليلة الملوك ، ووضعت خاتم (بلقيس) على وسادة حريرية ، قدمها لها احد ضباطها ، وانا اقول :

ـ ايا سليلة الملوك وزهرة (المور) .. يشرفنى ان اعيد إليك خاتمك ، الذى يحمل دلائل الثقة المتبادلة بيننا ، والذى استطعت بواسطته حمل زملائى واصدقائى على اصطحابى فى رحلتى إلى هذه الجهات النائية ، إلى الحد الذى اوقع باحدهم فى اسر وعبودية (الفنج) .

تناولت (مجيدة) الخاتم ، والقت عليه نظرة سريعة ، ثم ارته لكهنتها ، قبل ان تقول فى هدوء :

ـ شكرا لك ان اعدت هذا الكنز الاثرى الغالى لى ولرعيتى ايها الطبيب .

ووضعت الخاتم فى إصبعها ، واستطردت :

ـ انتم تعرفون قضيتنا أيها النبلاء .. (الفنج) يحيطون بنا ، ويتهددوننا بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وكما اخبرت الطبيب من قبل ، إننى اسعى إلى هدم معبد (الفنج) ومعبودهم ؛ لأن هذا ـ فى عقيدتهم ـ نذير لهم بالهجرة من هذه الارض إلى بلاد اخرى ، طبقا لنبوءة وثنية قديمة .

قاطعها (اورم) :

ـ معذرة يا زهرة (المور) ، ولكنك سمعت مثلنا (بارونج) ، سلطان (الفنج) يهدد بالانتقام لهدم معبده ومعبوده .

ترددت همهمة ذعر وفزع بين الحاضرين ، إلا أن (مجيدة) ظلت على هدوئها ، وهى تقول :

ـ الاقوال غير الافعال ، وهؤلاء الوثنيون يؤمنون بالنبوءة إيمانا مطلقا ، وسيدفعهم هذا إلى الهجرة فور تهدم معبودهم ، حتى ولو شاء ملكهم غير هذا .

ثم اعتدلت ، مستطردة :

ـ والآن .. هل تقسمون على خدمتى ؟

مضت لحظة من الصمت ، قبل ان يقول الكابتن :

ـ ينبغى ان نعرف المطلوب منا اولا .

قالت عالية الراس :

ـ اقسموا على خدمتى ، والحرب من اجلى ، والخضوع لقوانينى ، وان تبذلوا اقصى جهدكم لتدمير معبد (الفنج) ومعبودهم ، ولكم بعد ذلك مطلق الحرية فى البقاء او الذهاب حيثما تشاءون ، مع مكافاة تبهر الانفس .

ساد الصمت لحظات أخرى ، بدا خلالها ان الكابتن يفكر فى عمق ، قبل ان يسأل فى اهتمام :

ـ وأية مناصب سنشغلها لو فعلنا ؟

اجابته فى حزم :

ـ ستكون القائد الأعلى لهذه الحرب ، وستختار انت المنصب الذى يعمل فيه زميلاك .

سرت زمجرة غاضبة بين قوادها ، وارتفع من بينهم صوت يقول :

ـ اتعنين اننا سنضطر لطاعة هؤلاء الاجانب ؟

التفتت إلى مصدر الصوت ، وقالت فى صرامة :

ـ نعم .. ستفعلون هذا ، إلا إذا استطعتم إعداد

تلك المواد المتفجرة واستخدامها ، وهدم جزء من أسوار (هرمق) مثلهم .. هل تستطيع هذا يا عماه .

عقد العم (جوشيا) حاجبيه ، وصمت فى غضب ، فى حين سأل الكابتن الملكة فى اهتمام :

ـ لقد جعلتنى قائدا على جنودك يا مولاتى ، ولكن اخبرينى ، هل سيطيعوننى ؟.. هل يحمل كل منهم سلاحه ؟.. ثم من هم جنودك ؟

تطلعت إليه لحظات فى صمت ، ثم اجابت فى حزن :

ـ لا يمكننى منحك جوابا منطقيا ، بالنسبة للسؤال الأول ، فسيعود أمره إليك وحدك ، أما بالنسبة للسؤالين الآخرين ، فالواقع انه كان لجداتى وامهاتى جنود أشداء فيما مضى ، أما الآن فجنودنا ضعفاء جبناء ، والسلاح لا يكاد يكفى ثلثهم ، وهو لا يعدو الرماح والسهام والأقواس ، و ...

اختنق صوتها فى حلقها ، حتى انها لم تستطع إتمام حديثها ، ثم لم تلبث ان انفجرت بغتة باكية وسط مجلسها ، فسمعت الجاويش (كويك) إلى جوارى يتمتم :

ـ اللهم عاون هـذه الملـكة الوحيـدة المنكوبة بشعبها .

وهنا نهض الأمير (جوشيا) ، واتجه إليها ، وركع أمام عرشها ، وهو يقول فى صوت حمل الكثير من انفعاله :

ـ لمـاذا تحزنيننا بهذه العبارات يا سليلة الملوك ؟ السـنا فى حمى (سليمان الحكيم) ؟

تمتمت من وسط دموعها :

ـ (سليمان) لا يحمى إلا من يحمون انفسهم .

اشار إلى صدره ، قائلا :

ـ أليس لديك قواد شجعان ؟.. أليس لديك عمك وابن عمك ؟

غمغمت فى مرارة :

ـ وماذا يفعل القادة بلا جنود ؟

قال فى حدة :

ـ لقد رأيت بنفسك كيف كنت على وشك ذبح (بارونج) ، لولا تدخل ضيوفك البيض .

انتفضت فى مجلسها ، وقالت فى صرامة :

ـ وكنا سنخسر شرفنا ايضا يا عماه .

ثم رفعت ذراعها فى حدة ، هاتفة :

– لقد انفض المجلس ، وليحضر الكاهن ليقسم البيض امامه .

برز من خلف العرش رجل مهيب الطلعة ، واضح الوقار ، تلتمع تحت لحيته البيضاء الجواهر والأحجار الكريمة ، ويحمل فى يده اسطوانة ورقية ملفوفة ، كتبت عليها كل قوانين (الاباتى) ، منذ عهد (سليمان الحكيم) ، ووضع الرجل الاسطوانة الورقية امامنا ، وطالبنا بإلقاء القسم ، فقال الكابتن فى حزم :

– قبل أن نقسم ، نحب أن نؤكد أن ولاءنا الاول لوطننا ومليكنا ، ثم إننا نريد تعهدا من الملكة بمساعدتنا على إنقاذ زميلنا الأستاذ (هيجز) ، وابن الطبيب (رودريك) ، الذى يطلقون عليه اسم (مطرب مصر) .

اجابت الملكة بلا تردد :

– لكم هذا .

وعندئذ اقسمنا قسم الملكة ..

* * *

اعتدنا مع مرور الوقت نوم القيلولة ، الذى يقدسه شعب (الاباتى) كثيرا ، وفى يوم القسم ،

استيقظت فى الرابعة عصرا ، على صوت نباح (فرعون) ، فنهضت استطلع الامر ، ووجدت امامى رجلا يرتجف خوفا من الكلب ، فسالته فى صرامة :

— من انت ؟

اجابنى فى سرعة :

— إننى رسول الملكة ، وهى تسال عما إذا كنتم ترغبون فى مرافقتها إلى مكان لم تروه من قبل .

وافقته على الفور ، والتقيت مع (اورم) و (كويك) ، ورافقنا الرسول إلى فناء مهجور خلف القصر ، حيث وجدنا الملكة فى انتظارنا ، مع ثلاث من وصيفاتها ، وعدد من الرجال يحملون المشاعل ، ولم تكد ترانا حتى رفعت نقابها ، وابتدرتنا قائلة :

— لا ريب انكم قد رايتم الكثير فى حياتكم ، عبر رحلاتكم المختلفة ، ولكننى ساريكم اليوم اغرب شىء فى حياتكم كلها .

تبعناها إلى بهو كبير ، فى نهايته باب ضخم ، رفع الرجال مزاليجه ، فعبرناه إلى ممر طويل ، منحوت فى الصخور ، واغلق الرجال الباب خلفنا ، ومضينا فى الممر حتى بلغنا مغارة . .

بل هى اضخم مغارة رايتها او سمعت بها من قبل . .

وقالت (مجيدة) ، وهى تلوح بمشعل فى يدها :

ـ ها هو ذا كهف (المور) ، الذى نعتقد أنه كان معقل اجداد (الفنج) فيما مضى ، اما هذه الجدران والاطلال هناك ، فقد كانت مخازنهم ومعابدهم ، ولكن زلزالا حطم كل هذا ، ودفعهم إلى الهجرة ..

تبعناها ثانية إلى اعماق الكهف الهائل ، ومشاعلنا تبدو داخله كنجوم خافتة ، عاجزة عن تبديد ظلمته ، من شدة ضخامته ، حتى بلغنا مكانا به اطلال واعمدة متهدمة وتتوسطه عدة تماثيل محطمة ، مغطاة بطبقة كثيفة من الاتربة ، لم تخف تماما شكلها الشبيه بـ (أبى الهول) ، فتنهد (اورم) ، وقال :

ـ ليت (هيجز) هنا .

وبعدها قادتنا (مجيدة) إلى نبع يتدفق فى قوة ، وقالت فى اسف :

ـ كان (الفنج) يستخدمون هذا الكهف كمخزن للمؤن ، فى حالة الحصار ، ولقد حاولت إقناع شعبى باستخدامه لهذا الغرض ، ولكن كل من الكبار يتردد فى التضحية ببعض إنتاجه كمخزون ، وهكذا لن ينقذنا شىء من الموت جوعا ، لو احتل (الفنج) سهولنا .

سارت أمامنا ترينا إسطبلات الخيل ، التى كان (الفنج) القدماء يحفظون فيها جيادهم وعرباتهم ، ورحنا نعبر عدة ممرات ، انتهت إلى طريق واسع ، فى نهايته جدار ابيض ، لم يكد يراه اتباع الملكة حتى علا الرعب وجوههم ، فتقدمت هى إلى الجدار ، ونزعت منه حجرا كبيرا فى سهولة ، وقالت لوصيفاتها :

ـ كلكم تعتقدون ان هذا الجدار يسكنه الجن ، وتحوم حوله الأرواح ؛ لذا فسأترككم هنا فى حراسة الرجال ، وسأصحب الضيوف إلى داخله ، لأثبت لكم خطأ هذا الوهم .

وتناولت يد (أورم) ، وعبرت معه ثغرة الجدار فى هدوء ، وتبعتهما أنا والجاويش ، فوجدنا انفسنا فى كهف آخر ، ترتفع حرارته قليلا ، وسألها الكابتن :

ـ ما هذا المكان ؟

أجابته فى هدوء :

ـ مقبرة ملوك (المور) القدامى .

سرت فى جسدى رهبة من وقع الجواب ، ورحنا نسير وسط السكون ، ووقع أقدامنا يبدو واضحا على الأرض الصلبة ، والخفافيش تحوم حول ضوء المشاعل مضطربة خائفة ، وترتطم بالجدران ، حتى

عبرنا المكان إلى ما يشبه ساحة قتال ، فى مواجهتها عرش ضخم من الحجارة ، اتجهت إليه (مجيدة) ، ورفعت مشعلها امامه ، قائلة :

ـ انظروا .

بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجرى ، يعلوها تاج من الذهب ، وأمام العرش صولجان وخواتم وحلى من الذهب والمجوهرات ، وحوله عدد ضخم من العظام والجماجم البشرية ، اسفل كل منها الحلى التى كان يتزين بها أصحابها فى الدنيا ، وإلى جوارها اوان من الذهب ، تكتظ بالحلى والقلادات والاحجار الثمينة ، واكوام من نقود فضية وذهبية قدم عهدها ، وبطل تداولها ، ولما راتنا (مجيدة) مدهوشين مشدوهين ، اشارت إلى كل هذا ، قائلة :

ـ الجالس على العرش هو الملك ، وحوله ضباطه وحراسه ونساؤه ، وقد ذبحوا إلى جوار جثته ، ليسهروا على رعايته فى الحياة الاخرى ، وهذه حليهم ومجوهراتهم .

ثم اشارت بيدها ، مستطردة :

ـ هيا لنشاهدوا باقى الملوك .

ورفعت مشعلها أمامه ، قائلة : — انظروا .

بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجرى ..

رحنا ننتقل من عرش إلى عرش ، ومن كنز إلى كنز ، حتى اصابنا السام من تكرار المشاهد ، ولم يثر انتباهى سوى آنية احتشدت بآلات جراحية قديمة ، وعلمت ان العظام التى امامها هى عظام طبيب احد الملوك ، فملأت جيبى ببعض هذه الآلات القديمة ، لمقارنتها بآلاتنا الحديثة ، وشعرت (مجيدة) بما اصابنا من تعب وملل ، فقالت :

ـ سنعود الآن ، ولكن بقى ان تعلموا أن هذه الصخرة الضخمة امامنا هى الحاجز الذى يفصلنا عن معبود (الفنج) ، ونحن نعجز عن اجتيازها ، ولا نعلم إلى أى مدى تمتد .

عدنا ادراجنا بين العظام والجماجم ، وفى طريق العودة سأل الكابتن الملكة :

ـ ولكن اين تدفنون موتاكم حاليا يا سيدتى ؟

اجابته :

ـ فى الخارج ، فلم اكشف هذا المكان إلا منذ اعوام قليلة ، ولكن بالنسبة إلى اتمنى ان ادفن فى السهول ، لاقضى حياتى الآخرة بين الحشائش والزهور .

وفجأة انطفأ المشعل الوحيد لدينا ، وساد الظلام تمــاما ..

وسط القبور ..

* * *

كان موقفا مرعبا بحق ، أن نجد أنفسنا وسط الموتى ، فى ظلام دامس ، ولقد صاحت (مجيدة) مذعورة :

- يا إلهى !! .. نسينا أن نحضر مصباحا آخر .. أسرعوا ، فما زلنا بعيدين عن مدخل المغارة .

راحت تعدو ممسكة بيد الكابتن ، وأنا والجاويش نتعثر خلفهما ، فى محاولة للحاق بهما ، وســمعنا الكابتن يهتف بنا :

- ابقيا فى مكانكما ، سنعود إليكما ، ولكن أطلقا صيحة بين وقت وآخر ؛ لنتعرف موقعكما فى يسر .

أجابه الجاويش (كويك) :

- سنفعل يا سيدى .

تردد صدى الأصوات من حولنا ، فارتجف قلبى رعبا ، وأطلق (كويك) ضحكة عصبية ، وهو يقول :

ـ ليس للموتى اصوات .. إنما هو صدى اصواتنا .

حاولنا ان نبقى فى اماكننا ، كما امرنا الكابتن ، ولكن الرعب لم يمكنا من هذا ، فرحنا نتقدم فى بطء ، وارتطمت قدم الجاويش بجمجمة ، وسقط ارضا ، فأطلق صيحة رددت الجدران صداها ، فانحبست انفاسنا فى رعب ، وجلسنا نلهث لحظة ، بدت لنا اشبه بدهر كامل ، قبل ان يهتف (كوبك) :

ـ يا إلهى !.. لقد نسيت اننى احمل فى جيبى علبة ثقاب ..

اخرج العلبة من جيبه ، واشعل احد اعوادها ، ثم شهق مبهوتا ..

لقد راينا امامنا مذبحا ذا درجات ،لم ننتبه إليه من قبل ، وعلى اول درجاته ، كانت (مجيدة) بين ذراعى الكابتن ، الذى انحنى على شفتيها ، والصق بهما شفتيه ، وهى ترتكن براسها على صدره ، دون ان تبدو منهما حركة واحدة ، وكأنما استحالا إلى تمثالين من الرخام ..

ثم سعل (كوبك) ، وهتف :

ـ كم يسعدنى ان عثرنا عليكما يا كابتن ..

يا إلهى !.. هل فقدت الملكة وعيها .. دعنى أعاونك يا سيدى .

التفت إليه (أورم) كالذاهل ، وحدق فى وجهه لحظات فى صمت ، ثم بدا وكأنما يستيقظ مع (مجيدة) من سبات عميق ، وهو يهتف :

ـ لا .. لا داعى لذلك .

ثم نهض يعاون الملكة على النهوض ، وانطلقنا جميعا نجتاز الكهف إلى الخارج ..

وعدنا إلى القصر ..

وقبل أن نستسلم للنوم ، قال (أورم) فى لهجة حالمة :

ـ يا لها من رحلة رائعة فى غياهب المجهول ! ، ويا له من فارق رهيب بين الموتى القدامى ، وسليلتهم المفعمة بالحياة والحب !!

بدا لى أنه من الأفضل أن أواجهه بالموقف بكل صراحة ، فقلت :

ـ الواقع أننى قد تصورت ، عندما اشعل (كويك) عود الثقاب ، أنك و (مجيدة) كنتما ...

ترددت فى إتمام العبارة ، فقال هو فى حزم :

ـ لم تكن واهما .. لقد كنت اقبلها ، فقد فجر

الموقف والظلام عواطفنا المكبوتة ولم نستطع كتمان مشاعرنا .

لذت بالصمت لحظات ، ثم غمغمت :

ـ يسعدنى ان ربط الحب بينكما يا صديقى ، ولكننى اخشى مغبة هذا .

قال كالحالم :

ـ إنها اجمل غادة وقعت عليها عيناى ، فى الدنيا كلها يا (آدمز) ..

لحظتها ايقنت من انه لا فائدة .. لقد ربط الحب بينهما ، ووقع وثيقة موتهما ..

وارتجف قلبى بين ضلوعى ..

وهوى ..

* * *

٦ ـ الأسـود ..

لم نكد ننتهى من تناول إفطارنا فى الصباح ، حتى اتى رسول الملكة يدعونا لمقابلتها ، فذهبنا إليهـا ، ونحن نتساءل عن سر دعوتها لنا ، وعندما اجتزنا الممر الطويل ، الذى يقود إلى بهو العرش ، ملت على اذن (اورم) ، وهمست فى قلق :

ـ استحلفك بالخـالق ان تلتزم بكل الحـذر يا رجـل ، وأن تخفى مشـاعرك تجاههـا الآن ، فسيراقبون وجهك كما يراقبون كلماتك .

تضرج وجهه قليلا ، وغمغم :

ـ اطمئن .

تمتمت قلقا :

ـ كم اتمنى ان افعل .

استقبلتنا الملكة باسمة الثغر ، متهللة الأسارير ، وقالت :

ـ لقد دعوتكم لسبب هام ، فعندما هممنـا بإعدام (القط) الخائن ، تضرع لنـا ان نبقى على حياته ، حتى يمكنه ان يدلى إلينا بسر هام خطير ، قد يساعدنا على إنقاذ زميلكم (هيجز) .

هتفنا انا والكابتن فى آن واحد :

ـ كيف ؟!

هزت راسها قائلة :

ـ لست ادرى ، ولكننى رايت انه من الحكمة ان ارجىء قتله ، حتى تستمعا منه إلى ما لديه .

واشارت بيدها ، ففتح باب جانبى ، دلف منه (القط) ويداه مقيدتان خلف ظهره ، وقدماه مربوطتان بسلسلة من الصلب ، واندفع نحو الكابتن مستعطفا ، ولكن الحراس دفعوه ارضا فى عنف ، وقالت الملكة فى صرامة :

ـ ما الذى تريد ان تخبرنا به ايها الخائن ، قبل ان تلقى جزاءك ؟

قال وهو يرتجف :

ـ إنه سر بالغ الخطورة يا مولاتى ، فهل اتحدث به امام الجميع .

صمتت لحظة مفكرة ، ثم قالت :

ـ لا .

وامرت الحراس ومعظم الحاضرين بمغادرة المكان ، ثم التفتت إلى (القط) ، قائلة :

ـ هات ما لديك .

ازدرد (القط) لعابه فى صوت مسموع ، وقال :

ـ الإنجليزى (هيجز) مسجون فى المعبد الكبير .

سألته انا :

ـ كيف عرفت ؟

اجاب :

ـ انا اعلم هذا جيدا ، واستطيع ايضا أن ادلكم على طريق خفى إلى المعبد ، يمكننا بواسطته ان ننقذ (هيجز) من سجنه .. لقد اطلقوا على لقب (القط) ؛ لأننى اتسلق الجدران فى خفة ويسر ، وعندما القى (القنج) القبض على ، القوا بى طعاما للأسود ، ولكننى نجوت بمعجزة ، واستطعت الفرار ، بعد ان اصابتنى مخالب لبؤة بهذا الجرح فى وجهى .

وراح يشرح ما يشبغى عمله ، حتى هتف الأمير (جوشيا) :

ـ إننى اعترض على أن تقحم مليكتنا نفسها فى مثل تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر ، والتى قد تنطوى على هلاك ودمار .

أجابته فى هدوء :

ـ اشكر لك قلقك على يا عماه ، ولكن إصرارى على خوض هذه الرحلة لا يعود إلى رغبتى فى إنقاذ الابيض فحسب ، وإنما إلى وجود طريق سرى إلى معبد (الفنج) ، ينبغى لى ان اعرفه ، وعلى الرغم من ذلك فانا اوافقك على ضرورة ذهابى مع حماية او حراسة ؛ لذا فانا ارجو ان ترافقنى فى رحلتى .

ارتبك العم ، وراح يلتمس الاعذار والاسباب ، حتى قاطعته هى فى حزم :

ـ لقد سنحت الفرصة لتثبت شجاعتك ومهارتك وجراتك ، التى طالما تحدثت عنها يا عماه .. إنك ستذهب معنا .. هذا امر .

ولم يكن امامه سوى القبول ..

* * *

قادنا (القط) ، عصر اليوم نفسه ، عبر ممرات جبلية طويلة ، إلى قمة جبلية ، تشرف على هوة سحيقة ، يبلغ عمقها الفين وخمسمائة متر تقريبا ، ولا سبيل إلى بلوغ قاعدتها ـ حسبما رايت ـ حيث تكثر السهول ، ولكن (القط) اتجه إلى جدار صخرى ، نبت العشب فوقه ، وازاح منه حجرا

كبيرا ، فانكشفت لنا فجوة واسعة ، تمتد إلى ممر طويل ، وهو يقول :

ـ لقد كشفت هذا الممر منذ كنت صبيا ، وليتبعنى فيه من يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ، فهو شديد الوعورة والانحدار .

راح (جوشيا) يتضرع إلى (مجيدة) ان تتنازل عن فكرة خوض الممر ، ولكنها اجابت فى عناد وإصرار :

ـ ولماذا اتردد او اخاف ، ومعنا خيرة رجالنا فى تسلق الجبال ، ثم إن الطبيب ، الذى يبلغ عمره مثل عمر ابى ، لم يتردد فى المخاطرة ، فكيف افعل أنا ؟ هيا يا عمى .. لا تتردد .

اضطر (جوشيا) إلى رفقتنا مرغما ، واتصلت الحبال بيننا جميعا ، وتقدمنا (القط) والجاويش ، ثم عدد من متسلقى الجبال ، يحملون السلالم والمصابيح والوقود والطعام وخلافه ، ثم الملكة والكابتن و (جوشيا) ، وخلفهم عدد آخر من متسلقى الجبال ..

ورحنا نهبط درجا شديد الانحدار ، انحنى إلى آخر اشد رطوبة عند الشرق ، وكاد (جوشيا)

يقتلني ، عندما انزلقت قدمه ، فتشبث بذراعيه في رقبتي خشية السقوط ، وكاد يقتلني خنقا ، لولا ان اسرع احد متسلقي الجبال يبعده عني ، فاصررت ان يتقدمني ، حتى لا تتكرر المأساة ..

وعندما بلغنا المنحدر الثالث ، كان التعب قد بلغ من (جوشيا) مبلغه ، فأقسم الا يخطو خطوة واحدة ، وفشلت محاولاتنا وتاكيدات (القط) في إقناعه بالعدول عن قسمه هذا ، حتى قالت (مجيدة) في حزم :

ـ لا بأس ، فلتبق في مكانك هذا حتى نعود ، وليس هناك ما تخشاه ، فلن تهاجمك الوحوش .

تمتم في سخط :

ـ يا لك من إمرأة لا قلب لها !!.. اتتركين عمك وحيدا ، في هذا الجحر المسكون ، في حين تتسلقين انت الصخور كقطة مسعورة ، مع جماعة من الاجانب ؟.. اما كان ينبغي ان تظلي إلى جواري ؟

هتفت في صرامة :

ـ ليقال إن سليلة الملوك قد جبنت عن الذهاب حيث ذهب الغرباء .. لا يا عماه .. لا والف لا .

لم يسعه إزاء حزمها وصرامتها إلا ان يعود لرافقتنا ، وإن اضطر متسلقو الجبال لحمله طيلة

الطريق ، حتى بلغنا هضبة صغيرة ، تسللت إليها طلائع الفجر الأولى ، وانتشرت فى ارجائها اشجار واعشاب وطحالب ، نمت إلى جوار صخور ضخمة ، اشارت إليها الملكة ، قائلة :

ـ ما هذا ايها (القط) ؟

اجابها :

ـ إنه ظهر المعبود الكبير لـ (الفنج) يا سليلة الملوك .. إنه على هيئة اسد ضخم ، وذلك العمود هو ذيله ، وهذه الهضبة التى نقف عليها كانت فيما مضى نقطة مراقبة لكهنة (الفنج) ، عندما كانوا يملكون ارض (المور) ايضا ، وهناك جسر يهبطون منه إلى ذيل المعبود .

همست (مجيدة) إلى الكابتن :

ـ يبدو انه يتصل بـ (الفنج) ، عبر هذا الطريق .

ثم سألت (القط) :

ـ لماذا جئت بنا إلى هنا ؟

اجابها :

ـ لننقذ الإنجليزى ، فمن عادة (الفنج) ان

يسمحوا للمسجونين بالتجوال عند الفجر والغروب ، وارى ان نهبط إلى ذيل المعبود ، حتى نلتقى بالإنجليزى وننقذه ، والأفضل ان يصحبنى الكابتن ، حتى لا يستريب (هيجز) .

هتفت الملكة مستنكرة :

– ايها الاحمق .. اتتصور ان يخاطر الكابتن إلى هذا الحد ؟

قال (القط) فى خبث :

– هل تشكين فى شجاعته ؟

هتف به الكابتن :

– ويلك ايها الوغد !.. إياك ان تسىء إلى شجاعتى ، ولكنك قد ترمى بذلك إلى مكيدة ، تسلمنى بها إلى (الفنج) .

صاحت (مجيدة) بالكابتن :

– من الجنون ان تلقى بنفسك من الجبل ، وانت توقن بانك ستتهشم ارضا .

قال عمها فى لهجة ساخرة :

– ولكننا سمعنا الكثير عن شجاعة الأجانب ، فلم لا تمنحينهم الفرصة لإثبات هذا ؟

التفتت إليه ثائرة حانقة ، وقالت فى حدة :

ـ اليس من الافضل ان يثبت صاحب الدم النبيل انه لا يخشى إتيان ما يقدم عليه الغرباء ؟

شحب وجه عمها ، وانكمش على نفسه فى خوف . فابتسم (اورم) فى سخرية ، وانحنى ينزع حذاءه ، وهو يقول :

ـ إننى افضل السير بالجورب ، فى المناطق الوعرة ، ولا يقلقنكم أمرى ، فلقد اعتدت المخاطرة منذ صباى .

غمغمت الملكة فى قلق :

ـ ولكن هذا يفوق كل ما فعلت بالتأكيد .

أما الجاويش (كويك) ، فقد انحنى يخلع حذاءه بدوره ، مما جعلنى اسأله فى دهشة :

ـ ماذا تفعل ؟

اجابنى فى حسم :

ـ سأرافق الكابتن .

قلت فى عناد :

ـ بل سأرافقه انا ، فلست اقلكما استهانة بالمخاطر .

قاطعنا الكابتن صائحا :

ـ كفى .. انا القائد هنا ، وستطيعان اوامرى بلا مناقشة ، وانا امنعكما من مرافقتى .

قالت الملكة :

ـ فليرافقك احد متسلقى الجبال إذن .

والتفتت إلى احد رجالها ، قائلة :

ـ تعال يا (جانيت) ، ورافق السيد ، واعدك ان اهب لك او اهب إلى ورثتك قطعة ارض كبيرة ، لو اديت مهمتك كما ينبغى .

القينا سلما من الحبال إلى ذيل الاسد الحجرى ، ورحت استطلع المنطقة بمنظارى المقرب ، حتى لاح لى شبح ابيض عند راس المعبود ، ورجحت ان يكون (هيجز) ، إلا انه لم يلبث ان رفع عقيرته بغناء شجى رخيم ، جعلنى اهتف فى انفعال :

ـ إنه ولدى .. حمدا لله .. إنه لا يزال حيا .. آه لو نستطيع إنقاذه ايضا !!

وسالت الدموع على وجهى ، فربت الجاويش (كويك) على ظهرى ، وهو يقول :

ـ اهدأ ايها الطبيب ، ولتحمد الله على انه ما زال يحمل راسه على كتفيه .

ويبدو ان تهدئته هذه لم ترق لـ (القط) ، فقد قال فى برود :

ـ إنها ساعة إطعام الأسود المقدسة الآن ، و (الفنج) يحتفظون بها داخل مغارة ، عند قاعدة المعبد ، ولابد ان نعمل على إنقاذ الأستاذ الليلة ، فسيحتفلون بعيدهم ، وسيقدمونه قربانا لآلهتهم عندما يصبح القمر بدرا .

قالها وحاول ان يهبط سلم الحبال ، ولكن (مجيدة) صاحت :

ـ لا .. لن يعود هذا الخائن إلى أصدقائه (الفنج) .. انزل انت اولا يا (جافيت) ، وسيتبعك الكابتن .

راقبنا (جافيت) فى قلق ، وهو يهبط السلم ، متحسسا مواضع قدميه فى حذر ، حتى بلغ الصخرة المنشودة ، وهنا استدار الكابتن يصافحنى ويصافح (كويك) ، ثم انحنى للملكة ، التى شحب وجهها ، وبدا اضطرابها وحبها واضحين ، وهى ترد تحية (اورم) ، الذى اتجه إلى السلم وراح يهبط فى شجاعة وثقة ..

وفجأة انكسرت درجة السلم ، التى يضع ثقله عليها ..

وهوى من حالق ..

* * *

كانت لحظة وثبت فيها قلوبنا من بين ضلوعنا ، ولهثت فيها الملكة المحبة بفؤاد مزقه الهلع وادمته اللوعة ، وبدا لنا جميعا ان (أورم) قد انتهى ..

ولكن شاء له القدر أن يحيا ..

وبحركة سريعة ، دفعته إليهـــا غريزة البقـــاء ، قفزت يده تتعلق بدرجة سليمة من درجات السلم ، وتشبث بها فى قوة ، وراح يلهث من فرط الانفعال ، فى حين تنفسنا نحن الصعداء ، وتمنيت لو لم يلحظ (جوشيا) دموع الارتياح والسعادة ، التى سالت من عينى الملكة ، ولكن زهرة (المور) لم تلبث أن جففت دموعها فى سرعة ، واعتدلت فى وقفتهـــا فى حسم ، وهى تواصـــل مراقبة الكابتن ، الذى بلغ موضع (جافيت) ، فاحتضنه هذا الأخير فى سعادة واضحة ، وراح الاثنان يتسلقان المنحدر الصخرى الأملس ، حتى بلغا كتفى الأسد ..

وفى تلك اللحظة ظهر الأستاذ (هيجز) ، وهو يسير الهوينى وبدون شـــيئا ما فى مفـــكرته ، بكل البساطة والهدوء ، وهنـــا تقـــدم إليه (أورم) ، وامسك ذراعه فى قـــوة ، فالتفت إليه (هيجز) ، وحدق فى وجهه فى ذهول ، ثم انحنى الكابتن على اذنه ، ورايته يهمس بأمر ما ، علمت فيما بعد انه

كان سؤالا عن موضع ابنى (رودريك) ، ثم رايت الأستاذ يلوح بيده فى اهتمام ، ويختفى خلف رأس المعبود ، ومضت دقائق من السكون ، ثم تناهت إلى اسماعنا أصوات وصيحات عالية ، ورأينا الأستاذ يعدو بكل قواه صائحا فى الكابتن و (جافيت) :

ــ اهربا .. انجوا بنفسيكما من هؤلاء المتوحشين .

اسرع الكابتن و (جافيت) يتسلقان السلم ، وراى الكابتن بعض (الفنج) يتسلقون خلفهما ، فاخرج مسدسه ، وأطلق النار على رءوس بعضهم ، فسقطوا صرعى ، وراى الباقون مصرع زملائهم ، فلاذوا بالفرار ، وهم يطلقون صيحات مخيفة ..

ولم يكد الكابتن يصعد إلينا حتى ألقى نفسه ارضا ، واخفى وجهه بين يديه فى الم ومرارة ، فربتت (مجيدة) على كتفه ، وقالت فى حنان :

ــ لماذا يا عزيزى ؟!.. لقد كنت شجاعا صنديدا ، وعدت إلينا حيا ، وهذا يكفى .

هتف فى مرارة :

ــ ولكننى تركت اخى وصديقى (هيجز) خلفى ، وسيلقونه الليلة للأسود ، ولقد اخبرنى هذا بنفسه ، وكان يكتب وصيته عندما لقيته .

لم تجـد ما تجيبـه به ، فالتفتت إلى متسلق الجبال ، وقالت :

— إننى فخورة بك يا (جافيت) ، وسأجزل لك العطاء ، واجعلك قائدا لمتسلقى الجبال .

تهللت أسارير (جافيت) فى سعادة ، فى حين سألت انا الكابتن :

— ماذا حدث مع (هيجز) ؟

اجابنى والحزن لم يفارق صوته بعد :

— لم اكد التقى بـ(هجيز) حتى سألته ان يرشدنا إلى موضع ولدك ، ولكن الحراس راوه يتحدث إلينا ، فكان ما كان .

ثم التفت إلى (القط) ، وأمسكه من عنقه ، قائلا فى غضب مخيف :

— والآن حذار ان تكذبنا القول ايها الوغد .. لقد اخبرتنا انهم قد القوك طعاما لأسودهم ، ولكنك نجوت ، فكيف كان هذا ؟

هتف (القط) فى صوت مختنق :

— ارفع يدك من عنقى ، واقسم ان اخبرك بكل ما حدث .

ترك الكابتن عنق (القط) ، الذى سعل فى شدة ، ثم أجاب :

ـ لقد حملنى (الفنج) إلى مكان إطعام الأسود ، والقونى بين اللحوم المقدمة لها ، ثم رفعوا ابواب الأسود بسلاسل تجذب من أعلى ، وانطلقت أنا أعدو نحو التلال ، فى محاولة للنجاة ، ولكن ابؤة تبعتنى، وصفعتنى على وجهى بمخالبها ، التى تركت فى وجهى هذا الأثر ، ودفعنى جنون الرغبة فى الحياة إلى ان القى بنفسى فى الهاوية ، فرحت أنحدر فيها ، وأنا اتشبث فى جدارها بأظافرى ، ولكن اللبؤة اللعينة امسكت ساقى ، وجذبتنى بمخالبها وأنيابها إلى الخارج ، ثم تراجعت لتثب على مرة اخرى ، إلا أننى رأيت حافة ناتئة بارزة ، على جانب الهوة ، فقفزت إليها بغتة ، واردت التعلق بها ، ولكنها انهارت تحت ثقلى ، وهويت إلى سرداب مظلم ، بقيت فيه نهارين وليلتين ، حتى عثرت على طريق للفرار .

رحنا ندرس الأمر طبقا لروايته ، واستقر رأينا على ان يهبط الكابتن والجاويش وبعض متسلقى الجبال ، إلى حيث يحتفظ (الفنج) بأسودهم ، وأن يرافقهم (جافيت) ، الذى تطوع باصطحابهم ، وأنا

أقف أنا والبقية الباقية من متسلقى الجبال عند نهاية السلم ، حتى إذا ما حان موعد إطعام الأسود ، أعددنا بنادقنا ، وتاهبنا للقتال ..

وفى اللحظة المنشودة ، ارتجفت نفسى ، وأنا أشاهد تلك السلة اللعينة ، التى تحوى طعام الأسود ، والأستاذ (هيجز) ، وهى تهبط إلى حيث الأسود ، التى صم زئيرها الآذن ، وهى تشم رائحة الطعام الآدمى الطازج ..

ولم تكد السلة تلمس الأرض ، حتى وثب منها (هيجز) ، وبدا لحظة وكأنما سيطلق ساقيه للرياح فرارا ، إلا أن كرامته — على الأرجح — قد منعته من ذلك ، فقد توقفت بغتة ، وعقد ساعديه أمام صدره ، بعد أن أرخى قبعته على وجهه ، ووقف ينتظر هجوم الأسود فى بسالة ..

ورفع (الفنج) باب مغارة الأسود ، التى هبت لالتهام فريستها ..

ونجاة انهالت عليها رصاصاتنا ..

وأصيبت الأسود بالذهول ، فتراجعت فى ذعر ، فى حين قفز (جامبيت) إلى حيث الأستاذ ، وجذبه

وفجأة انهالت عليها رصاصاتنا ..
وأصيبت الأسود بالذهول ، فتراجعت فى ذعر ..

إلى حيث الســـلم ، فأفاق (الفنج) من ذهولهم ، وانطلقوا يعدون خلفه ، وقد جن جنونهم لضـــياع قربان الآلهة ، ولكن رصاصات بنادقنا أعادت إليهم صوابهم ، وجعلتهم يختبئون كالفئران المذعورة ، حتى عاد إلينا الأستاذ ، ونجونا جميعا فى ليلة عيد معبود (الفنج) ..

ويا لها من ليلة !!

* * *

٧ ـ مفاوضـــة ..

على الرغم من فرحتنا باستعادة (هيجز) ، ظل قلبى يحمل الكثير من الحزن ؛ لأننا لم نستعد ولدى (رودريك) ، الذى ظل أسيرا لدى (الفنج) ، ولقد جلس (هيجز) بيننا اشعث الشعر ، مهلهل الثياب ، واخـــرج غليونه ، الذى ما زال كمنظـــاره سليما صالحا ، على الرغم مما مر به من أهـــوال ، وراح يحشو الغليون ببعض ما اعرته إياه من تبغ ، وراحت (مجيدة) تتطلع إليه فى دهشة وحيرة ، وكأنهـــا لا تصدق ان هذا الرث صديق لنا ، فى حين سألنى هو مبهورا :

ـ من هذه الحسناء الفاتنة ؟

اخبرته انها الملكة ، فوقف احتراما ، وهم بخلع قبعته على نحو غريزى ، ثم لم يلبث ان انتبه إلى أنه قد فقدها فى معمعته ، فراح يتحدث معها بلغة عربية فصحى ادهشتها واثارت إعجابها ، فرفعت حاجبيها الجميلتين ، وغمغمت :

ـ تهنئاتى بنجاتك ايها الغريب ، لا ريب أنها كانت تجربة شاقة .

هز رأسه مؤمنا ، وقال :

— شاقة للغـــاية ، وأنا عاجز فى الواقع عن الشكر والاعتراف بجميل هؤلاء الأصدقاء .

والتفت إلى مستطردا :

— واطمئن بالنسبة لولدك يا (آدمز) ، فهو فى خير حـــال ، ولقـــد اصـــبحنا صديقين حميمين ، وسيتزوج ابنة الســـلطان (بارونج) .. وهـــذا السلطان طيب القلب ، كريم النفس ، ولقد اعترض كثيرا على إلقائى للأسود ، ولكنه عجز عن مواجهة سطوة كهنة المعبود ، واقـــد سمح لى بدراســـة شعائرهم الدينية ، و ...

قاطعته فى لهفة :

— وماذا قال ولدى ؟

اجابنى فى بساطة :

— لقد اســـعده كثيرا أن يعلم انك تسعى إلى استعادته ، وآلمه ان تلقى كل الهوان والعذاب فى سبيل هذا ، وهو شاب وسيم جميل ، ما زال يجيد الإنجليزية ، وإن غلبت عليها لهجة (الفنج) ، وهو الآن رئيس مرتلى أناشيد المعبد ، وسيتزوج ابنة السلطان قبيل اكتمال القمر فى الشهر القادم بليلة

واحدة ، وستقام الاحتفالات فى (هرمق) ، وكنت اتمنى حضورها ، و ...

قاطعته مرة اخرى :

ـ وهل يحب هو ابنة سلطان (الفنج) هذه ؟

هز راسه ، مجيبا :

ـ إنه لم يرها فى حياته كلها ، ولكنه سمع عن جمالها وبساطتها ، ولعل ابسط مزايا هذا الزواج ، انه سيضمن عدم إلقائه إلى الأسود .

اكتفيت منه بهذا القول ، الذى جعلنى انام ليلتى قرير العين ، حتى ايقظنى (هيجز) فى الصباح ، وهو يقول :

ـ انهض ايها الكسول ، وحدثنى بكل ما لديك عن زهرة (المسور) .. الا ترى معى أن لعينيها سحرا عجيبا ؟

جلست على فراشى قائلا :

ـ دع مشكلة سحر عينيها هذه لكابتن (أورم) ، فهو يحبها .

هتف :

ـ يحبها ؟!.. إننى أمنحه كل الحق فى هذا ، فلو أننى فى مثل عمره ، لغرقت فى عشقها حتى أذنى .

قلت فى قلق :

ــ اخشى ما اخشاه انهــا قــد وقعت فى حبــه بدورها ، وقد يمرضهما هذا للقتل ، فهــو يخالف قواعد (الاباتى) وعقيدتهم .

هز راسه متفهما ، وقال :

ــ يبدو انك على حق .. ساتحدث إليه فى الامر جديا ، فانا فى مثل عمر والده تقريبا .

قلت فى انفعال :

ــ فليكن ، ولكن حذار ان تنتبه (مجيدة) إلى هذا .. حذار ..

* * *

دعتنا الملكة إلى مجلسها الكبير مرة اخرى هذا العصر ، ولم نكد ندلف ، حتى فتحت أبواب ضخمة فى نهاية القاعة ، وتقــدم عبرها ثلاثة رسل من (الفنج) ، تدلت لحــاهم البيض على ملابســهم الناصعة ، وهم ينحنون فى ادب جم امام (مجيدة) ، التى اسدلت نقابها على وجههــا ، دون أن يعيروا (جوشيا) او الكهنة اية عناية او اهتمام ، ورفعت (مجيدة) كفها ، قائلة :

ــ تكلموا .

تقدم احدهم خطوة ، وقال :

ـ ايا سليلة الملوك وزهـرة (المور) .. إننى احمل إليك رسالة شـفهية من سـلطاننا العظيم (بارونبج) .

قالت فى هدوء :

ـ هات ما لديك .

اعتدل وقال مرددا كلمات سلطانه :

ـ يا « ام النجاشى » .. لقد استعنت بالغرباء لإلحاق الأذى بمعبودنا (هرمق) ، وانـا خادمه ، ولقد قتلوا بعض جنودى ، وانتزعوا من المعبـود قربانه وضحيته ، وقتلوا بعض اسودنا المقدسة ، وعـددا من كهنـة (هرمق) ، كما ابلغنى بعض جواسيسى انك تضمرين شرا لمعبودنا ؛ لذا فانـا ابلغك اننى سابيد (الاباتى) عن آخرهم ، بعـد هذه الأفعال ، وبعد ان ابقيت عليهم طويلا ، ولقد اجلت زواج ابنتى من (مطـرب مصر) بسـبب احزانى لمـا حدث ، ولن يذهب حزنى ، وتتـزوج ابنتى ، ويرتد حسامى إلى جرابه ، إلا بعد ان اثار لمعبودى ، ولا ابقى على اثر لـ (الاباتى) ، ولتعلمى ان المعبود (هرمق) قد تنبا بعد مصرع وحوشـه ، وعلى لسان كهنته ، ان راسى سيرقد على سـهول

(المور) ، قبل موسم الحصاد ، وهذا يعنى اننى او من يخلفنى سينام على ارض (المور) قبيل ان يأتى الحصاد ، وامامك الآن احد خيارين ، إما ان تخضعى لى ، فيسلم (الاباتى) جميعا ، فيما عدا (جوشيا) ، وعشرة آخرين ؛ لانه حاول اغتيالى باسلوب لا يتفق مع الشرف ، ولان الآخرين لا يستحقون الموت بالسيف ، او ان تقاومى ، فلا يسعنى إلا ان اقتل كل رجالك ، عدا المغرباء ، وعدا (جافيت) ، الذى استحق احترامى وتقديرى ، لما اثبته من جرأته ، واستهانته بالموت ، وفى الحالة الاخيرة ستسبى كل نساء (الاباتى) ، فيما عدا (أم النجاشى) ، ذات القلب الكبير » .

انتهى الرسول من تلاوة الرسالة الشفهية ، وصمت ينتظر الجواب ، فادارت (مجيدة) عينيها فى وجوه مجلسها ، ورأت الرعب المرتسم عليها ، فقالت :

— ما رأيكم يا رجال مجلسى الموقر ؟.. لست احب ان انفرد بجواب يعنى مصير شعب بأكمله .. ما رأيك يا عمى (جوشيا) .. أتقبل ان تضحى برأسك ورءوس عشرة من القادة ، فى سبيل السلام بيننا وبين (الفنج) ؟

هتف (جوشيا) مستنكرا :

— أتقترح ملكة البلاد ان يشنق عمها ، والأمير الأول لبلادها ؟.. هل توقع العشرة الآخرون أن يسمعوا هذا القول ، من شفتى مليكتهم ؟

أجابته فى هدوء :

— لست اقترح شيئا يا عماه ، وإنما اسألك رأيك فيما يعوضه سلطان (الفنج) .

صاح فى غضب :

— اجيبيـــه عنى وعن العشرة الآخرين ، وعن كل (اباتى) ، اننـــا نرفض هذا العرض ، واننـــا ســـنقاتل (الفنج) ، ونبيدهم ، ونهـــدم معبودهم ومعبدهم على رءوسهم ، لنمهد بأحجاره طرقنا ونبنى معابدنا .. هل تسمعون يا رسل (الفنج) ؟

تطلعوا إليه فى استهتار وازدراء ، وقال كبيرهم :

— نعم .. نسمع ، ويسرنـــا ان نسمع هـــذا القرار ، فشعبنا يحب الحروب ، ويفضـــل حسم خلافاته مع الآخرين بحد السيف ، ولكن عليك انت أن تعجل بالموت ، قبل ان نحتل (المور) ، فالمشنقة ليست وسيلة الموت الوحيدة عندنا كما تعلم .

شحب وجهه وهم ينحنـــون للملكة ، ويغادرون المكان ، وصاح غاضبا :

— هل ستسمحون لهم بالانصراف ؟.. لابد ان نقتلهم بعد ان هددوا واهانوا امير بلادكم .

ولكن احدا لم يرفع يده إلى رســـل (الفنج) ، الذين غادروا المكان حاملين القرار ..

قرار الحرب ..

* * *

٨ ـ القـــرار ..

لم يكد رســـل (الفنج) يغادرون المكان ، حتى ساده صمت ثقيل رهيب ، تحطم فجاة بجلبة احدثها حديث رجال (الأبـــاتى) المختلط ، حيث راحـــوا يتحدثون جميعا فى آن واحد ، دون ان يصغى احدهم إلى ما يقوله جـــاره ، إلى ان برز الكاهن من وسط الجموع ، وهتف يدعـــو الجميع للصمت ، ثم راح يعلن اننا نحن سبب ما اصاب (الأبـــاتى) ، الذين عاشوا عمرهم كله فى ســـلام ، حتى لدغنـــا نحن جيراننا (الفتح) ، واشـــعلنا نيران الغضـــب فى نفوسهم ، فثـــاروا وهاجموا وماجـــوا ، وقرروا القضاء على (الأباتى) بلا رحمة ..

وفى نهاية خطبته الحماسية الغاضـــبة ، اقترح ترحيلنا من (المور) ، حتى يستتب الهدوء من جديد ، وعندئذ شاهدت (جوشيا) يهمس بأمر ما فى اذن احد اتباعه ، الذى لم يلبث ان صاح :

ـــ لا .. لو اننا طردنـــاهم ، فسيهرعون إلى (بارونج) ، ســـلطان (الفنج) ، بعـــد ان سبروا اغوارنا ، وكشفوا اسرارنـــا ، وصار بمقدورهم استغلالها ضدنا .. يجب ان نعدمهم على الفور .

ثم جرد حسامه فى زهو ، فقفز إليه الجاويش ، وضرب رأسه بكعب مسدسه ، وهو يقول فى صرامة :

— أعد سيفك إلى غمده أيها الوغد .

ولدهشتنا أطاعه الرجل فى خوف ، فاندفعت الملكة تقول فى انفعال :

— يا للعار !.. يا للخسة والنذالة !.. هؤلاء ضيوفى ، تركوا أوطانهم وذويهم ، وهبوا لمساعدتنا وخدمتنا ، فهل نكافئهم على هذا بالقتل ؟!.. ثم ما الذى يجديه هذا ؟.. إن الحل الوحيد لنجاتنا من هذا الموقف ، هو أن نهدم معبد (الفنج) ومعبودهم على رءوسهم .. ولتعلموا أن سلطان (الفنج) ، على الرغم من عدائه لنا ، رجل شريف ، يحترم الشجاعة والشجعان ، وستتضاعف نقمته علينا ، لو قتلنا من يحمل لهم كل الاحترام ، ولن يطفىء غضبته — حينذاك — إلا القضاء على شعبنا كله ، ولو وافقتم على اقتراح قتل الغرباء ، فسأتنازل عن عرشى ، ولتنتخبوا ملكة غيرى .

صاح أحد رجالها فى جزع :

— هذا مستحيل !!.. أنت آخر السلالة النبيلة .

قالت فى حزم :

ـ اختاروا واحدة من دم غير نبيل ، أو انتخبوا ملكا يوافق على ذبح الضيوف ، وإهدار شرف (الأباتى) وكرامتهم ، واحتمال هذا العار إلى ابد الآبدين .

دفعت كلماتها الخوف إلى نفوس أعضاء مجلسها ، فسألها أحدهم فى قلق :

ـ ما حل المشكلة فى رأيك إذن يا (ام النجاشى) ؟

رفعت نقابها ، وألقته على راسها ، وهى تقول فى صرامة :

ـ الحل الوحيد هو أن تؤلفوا جيشا جرارا ، ينضم إليه كل قادر على حمل السلاح ، وليساعدكم الغرباء ، ويقودكم إلى النصر ، وإلا فلتقبلوا بالذبح ، وبأن تروا نساءكم سبايا ، وان يمحى اسمكم من سجل الشعوب .

صاح أحدهم ، وقد ملكه الحماس :

ـ كلا .. كلا .

هتفت بحماس اكبر :

ـ انقذوا انفسكم إذن ، فما زال عددكم كبيرا ..

تزودوا بالشجاعة مرة واحدة ، وستجدون انكم قادرون على احتلال (هرمق) نفسها قبل الحصاد .

ثم نهضت ، وغادرت المجلس فى عظمة ووقار ..

وتركت القرار الأخير لشعبها ..

* * *

انتهى قرار (الأباتى) إلى ان نبقى على راس جيشهم ، وان يطيعوا أوامرنا الحربية ، على ان يكون لهم مجلس من القادة معنا ، له راى استشارى فحسب ، وقد انساهم رعبهم من القتال كوننا غرباء ، لا ننتمى إلى وطنهم بصلة ..

وبدات مهمة تكوين الجيش ..

وكانت اشق مهمة بذلناها فى عمرنا كله ..

لقد كان (الأباتى) قوما زراعيين ، لا يمتون للحرب والقتال باية صلة ، ولقد اعتبروا جمعنا للجيش امرا رهيبا ، فراحوا يرشقوننا بالحجارة من نوافذ منازلهم واكواخهم ، ونحن نجمع الجيش ، حتى لم نستطع جمع اكثر من خمسة آلاف رجل بشق الأنفس ..

وكانت مهمة (كويك) الاساسية هى ان يعاون الكابتن طوال ست ساعات يوميا ، على شق

سرداب من نهاية مقبـــرة اجداد وملوك (الاباتى) ، واسفل الصخرة الضخمة التى تفصله عن المعبود ، وحتى التمثال نفسـه ..

وكانت مهمة شاقة بحق ..

بل هى مستحيلة ..

ثم تدخلت العناية الإلهية ، وعثرا فى اثناء حفر السرداب على نفق قديم، شديد الانحدار ، يوصلهما إلى هدفهما ، ولكن الزلازل القديمة كانت قد ردمت جزءا منه ، وكان عليهمـــا رفع الصـــخور ، إلا ان الكابتن قال للملكة :

ـ اخشى ما اخشاه الا يؤدى بنا هــذا إلا إلى مغارة الاسود ، ثم إنه سيحتاج إلى ما يقـــرب من ستة اسابيع لرفع الصـــخور والانقاض ، فى حين اننى لا اميل إلى فكرة هدم المعبد والمعبود هــذه ، فهما جزء من جبل شاهق شامخ ، واشك فى ان تنجح متفجراتنا فى نسفه ، والراى عندى ان نجمع جيشا من (الاباتى) ، ونهاجم مدينة (هرمق) فى اثنـــاء احتفالات عيد الحصاد ، فلو امكننا هدم اسوارها وابوابها فسنستطيع مهاجمة المعبود ، وهدم المعبد من الداخل .

استمعت إليه (مجيدة) فى اهتمـــام ، وصمتت طويلا مفكرة ، ثم هزت راسها ، وقالت :

— ساستشير مجلسى ووزرائى .

قضيت ليلتها تستشير قادتها ، ثم اتت تقول فى سخرية مريرة :

— يقول اعضاء مجلسى الموقر إنها فكرة طائشة ، ولا سبيل لتحقيقها ؛ لأن (الأباتى) لا يلقون بأنفسهم فى التهـــلكة عبـــثا ، ثم إنهم يرون أن هدم المعبـــد والمعبود هو الوسيلة الوحيدة لإنهـــاء صراعنا مع (الفنج) ؛ ولذلك فهم يأمرونكم بهدم المعبود والمعبد .

تطلعنا إليها فى دهشـــة لعبارتها الاخيرة ، فاضافت فى مرارة :

— نعم .. إنهـــم يأمرونكم ولا يرجونكم ؛ لانهم يعتبرونكم فى خدمتهم لمدة عام كامل ، كما اقسمتم ، وفى هذه الحالة يتحتم عليكم طـــاعة اوامرهم ، فهذا ما ستنالون عليه أجركم .

بدا الغضب على وجـــه الكابتن ، فاستدركت فى سرعة :

— هذا ما قرره المجلس ، وما اعلنه نيابة عنهم الأمير (جوشيا) .

احتقن وجه (أورم) ، وقال :

— وهل هذا رأيك ايضا يا سليلة الملوك ؟

تنهدت وقالت :

— ليس امامى سوى هذا ، ما دام (الاباتى) يرفضون القتال .

ران الصمت لحظة ، ثم قال الكابتن :

— لا بأس يا زهرة (المور) .. سنبذل قصارى جهدنا ، ولكن لا تلوموا إلا انفسكم ؛ لو انتهى الامر على خلاف ما تحبون ، فالنبوءات سلاح ذو حدين ، ولست أتصور شعبا مقاتلا كـ (الفنج) يغادر بلاده هكذا ، بعد هدم معبـــده ومعبـــوده ، مهما قالت نبوءاته ، دون ان يهدم بلادكم فوق رءوســـكم .. ولكن ليكن ما شاء مستشاروك الشجعان .

صمت لحظة ، وكأنما يدرس الأمر ، ثم أضاف فى حزم :

— أريد مائتين وخمسين من متسلقى الجبال ، تحت قيادة (جافيت) ، الذى عليه اختيارهم بنفسه ، وسأتولى مع الجاويش (كويك) أمر المتفجرات ، ومد الأسلاك فى السرداب .

أجابته :

— ستحصل على ما تريد .

لم نكد ننصرف من مجلسها ، حتى سمعنا (جوشيا) يقول :

— لقد ظهر الغرباء على حقيقتهم .

استدار إليه الكابتن فى حركة حادة عنيفة ، جعلته يتراجع مذعورا ، فى حين صاح الكابتن :

— حذار أن ينتهى الأمر إلى أن تظهر أنت على حقيقتك يا (جوشيا) ، فهى أقل مما تتصور بكثير .

لم ينبس (جوشيا) بحرف واحد ، ولم يجرؤ حتى على الاعتراض ، وإنما انسحب وهو يهمهم بعبارات غاضبة مبهمة ..

وعدنا نحن إلى العمل المتصل ..

كان الكابتن والجاويش يتناوبان العمل ليلا ونهارا فى السرداب ، وكلبنا (فرعون) الصق بالكابتن من ظله ، فى رواحه وغدوه ..

ثم حدث ما كنت أخشاه ..

وكادت تقع المأساة ..

كان ذلك ذات ليلة ، خرج فيها الكابتن يلتمس بعض الراحة ، من عناء العمل فى السرداب ، وعهد إلى الأستاذ بالإشراف على العمال بدلا منه ، حتى يأتى الجاويش (كويك) لتسلم نوبتجيته ، وكنت أنا

مشغولا بإحباط عصيان بعض صغار الملاك من الجنود ، الذين فروا من الجندية إلى حقولهم ، لبيع محصولاتهم ، وبعد أن انتهت الملكة من معاقبتهم سارت معى الهوينى ، حتى التقينا بالكابتن ، فأمرت حراسها بالعودة إلى القصر ، وسارت جنبا إلى جنب مع (أورم) ، حتى اختفيا فى أحد الأركان ..

وجلست انتظرهما فى بقعة بعيدة ، وقد شرد فكرى فى ولدى الأسير الحبيس ، حتى تناهى إلى مسامعى وقع اقدام متسللة حذره ، فأشعلت عودا من أعواد الثقاب ، ليسقط الضوء على وجه أحد خدم الأمير (جوشيا) :

ووجدت نفسى أرتجف ..

وأتساءل : أكان ذلك الخادم فى طريقه إلى حيث (أورم) و (مجيدة) ، أم كان عائدا من هناك ؟!

وبكل توتري صحت به :

ـ من أنت ؟.. وماذا تفعل هنا ؟

هتف فى انزعاج :

ـ الطبيب ؟!

انطفأ عود الثقاب فى تلك اللحظـــة ، ولم أكـــد أشعل آخر ، حتى كان الخادم قد اختفى ، وكأنما انشقت الأرض وابتلعته ..

ولم أخبر الكابتن أو الملكة بما حدث إلا اننى لم أستطع كتمان مخاوفى عن (هيجز) ، الذى عقـــد حاجبيه طويلا مفكرا ، ثم قال :

ـــ أغلب ظنى أنهم سيحاولون قتل الكابتن ، ومن الضرورى أن نحذره من النوم بمفرده .

كان هـــذا فى المســـاء ، ولم تكد تشرق شمس الصباح التالى ، حتى طرق (كويك) باب حجرتنا ، وهو يقول فى انزعاج واضح :

ـــ الكابتن يريد رؤيتكما .

سأله (هيجز) ، ونحن نرتدى ثيابنا على عجل :

ـــ ماذا حدث ؟

أجابه (كويك) فى اقتضاب :

ـــ ستريان بنفسيكما .

قطعنا شوطا طويلا فى السرداب المظلم ، حتى

بلغنا اطلال معبد قديم ، ورأينا على ضوء المصباح الذى احمله شـــبح الكابتن ، وهو يحمل مصباحا آخر ، وإلى جواره جلس (فرعون) يهز ذيله مرحبا بنـــا ، وتمتم الكابتن فى خفوت :

ـــ اتبعانى .. ساريكما شيئا .

قادنا إلى حجرة جانبية ، اقام فيهـــا فراشه ، واشار إلى شىء مجاور للفراش ، قائلا :

ـــ انظروا .

بدت لنا جثـــة رجل قتيل ، وإلى جوارها خنجر ضـخم ملوث بالدماء وتعرفنا على الفور ذلك القتيل ، وهتفنا فى صوت واحد :

ـــ (القط) ؟!

قال الكابتن فى حزم :

ـــ لقد تســـلل ليقتلنى ، ولكن (فرعون) انتبه إليه ، وايقظنى نباحه ، فنجوت من الموت بأعجوبة ، واشتبكت مع (القط) ، واضطررت لقتله .

غمغم (هيجز) :

ـــ لقد نال جزاءه ..

بدت لنا جثة رجل قتيل ، وإلى جوارها خنجر ضخم ملوث بالدماء
وتعرفنا على الفور ذلك القتيل ..

ولم يكد الخبر يتنـــاهى إلى (مجيـــدة) ، حتى هرعت إلينـــا جزعة مذعورة ، وتبعها (جوشيا) متظاهرا بالجزع والتعاطف ، وإن لم ينس أن يرمق (فرعون) بنظرة قاسية ناقمة ..

ولم يكتف بالنظرة للأسف ، ففى مســـاء اليـــوم نفســه مات (فرعون) ..

مات مسموما ..

* * *

٩ ـ الخيـانة ..

منذ ذلك الحادث احاطتنا الملكة بنخبة مختارة من حراسها الاوفياء ، وبرعاية فائقة ، حتى اننا لم نكن نخطو خطـوة واحـدة من دون الحراس ، وحتى طعامنا وشرابنا لم نكن نتناولهما قبل ان يتذوقهما شخص مسـئول ، حتى لا يكون مصيرنا كمصير (فرعون) المسكين ..

وكان اكثرنا ضيقا وتبرما بتلك الحراسة المكثفة هى الملكة نفسها ، وكذلك الكابتن ، فعلى الرغم من ان الحراسـة تكفل الا تقطع رقابنا فى اثنـاء النوم ، والا تقضى نحبنا بالسم ، إلا انها فى الوقت نفسه تضع قيودا يصعب تجاوزها ، بالنسبة للقاء العاشقين ..

ولكن هـذا لم يمنع من حدوث بعض الحوادث الغامضة المثيرة للشك ..

فعندما كنا نجلس ـ ذات مرة ـ عند سطح التل ، هوت فوقنا صخرة ضخمة ، كادت تسحقنا سحقا ، لولا ان ارتطمت بنتوء صغير فى هبوطها ، فانحرف مسارها ، ونجونا باعجوبة ..

ومرت أخرى ، سقطت علينـــا بعض الرماح ، ونحن نجـــول فى الغابات ، ولقى جـــواد (هيجز) مصرعه ، إلا اننـــا لم نجـــد اثرا لمخلوق واحـــد فى الأدغال كلها ..

وذات يوم ، هرع راعيا غنم إلى القصر الملكى ، وقالا إنهما كانا يرعيان بعض الأغنام ، بالقرب من الصخور الغربية ، على مسيرة عدة كيلومترات ، عندما فاجأهما خمســة عشر من جنـــود (الفنج) ، واحكموا وثاقهما ، وقالوا لهما فى ســخرية :

ـــ أبلغا المجلس والملكة والغرباء انه من الأفضل أن يسرعوا بتدمير معبودنا ، قبل أن تتحقق النبوءة ، ويتم سحق (الأباتى) ، وسبى نسائهم ، واحتلال (المور) .

ثم تركوهما موثقين ، حتى حل رعـــاة الأغنـــام الآخرون وثاقهما ، فأسرعـــوا إلى القصر لإبـــلاغ الرسالة ..

وهرع فريق من الجيش إلى تلك البقعة ، يتفقد المكان ، ويبحث عن اى اثر تركه (الفنج) خلفهم ، ولكن دون أن يسفر هذا عن شىء ..

وتفجر عندئذ سؤال جديد ..

أى طـــريق ســـلكه جنود (الفنج) إلى أرض (المور) ، ليبلغوا رسـالة سلطانهم ؟!

والمؤسف أن الأمطار قد هطلت بعد هذا الحادث، ومحت أية آثار اقدام ، قد يكون الأعداء قد خلفوها وراءهم ..

ولم يعد أمامنا سوى افتراض واحد ..

ان (الفنج) قد كشفوا طريقا خفيا بين (هرمق) و (المور) ، وانه ســيكون وسيلتهم للتسلل إلى البلاد وغزوها مستقبلا ..

وتضاعف الفـزع فى النفوس ، مع انتشـار القصة وانتقالها من فم إلى فم ، وبدا الأمر اشـبه بأمة حديثة ، تخشى أن يهبط عليهـا العدو بغتـة بالمظلات ، ويحتل أرضها ، وهى فى سبات عميق ..

وبسرعة تبخرت الثقة بالنفس ، وانهار الزهو بأسوار (المور) الصخرية ، وانقلب الحديث إلى وصف جيوش (الفنج) المدربة ، ولم يلبث الرعب ان ملأ النفوس ، وارتفعت بعض الأصوات تطالب بمحاكمة مستشارى الملكة ، الذين ساقوا البـلاد إلى هذه الحالة من الضعف ، بسياسة السـلام المزيلة ، والعزوف عن الحروب ..

وأفل نجم (جوشيا) كثيرا ..

وبقـدر ما هبط نجم (جوشيا) ، ارتفع نجم (مجيدة) ، التى طالمـا نادت بضرورة تكوين جيش قوى مدرب ..

ولم يعد امام شعب (الأباتى) المسكين سوى أن يتضرع إلى إلهه طالبا الرحمة ، وسـائلا إيـاه أن يمنحهم القوة على مواجهة اعدائهم ..

واصبحنا نحن امل (الأباتى) الوحيد فى النصر ، وتضاعف احترامهم لنا مـرات ومرات ، حتى أن (جوشيا) نفسه صار ينحنى لنا كلما لقينا ، وصار الحفاظ على حياتنا هو الشغل الشاغل للجميع ، فانقطعت المؤامرات والدسائس ، أيا كان مصدرها ، وواصلنا نحن العمل ..

واخيرا انتهينا من العمل الشاق ، وتم إعداد كل شىء للقتال ، واتفقنا على إشعال فتيل الحرب ليلة اكتمال البدر ، وهى الليلة التى أبلغنا جواسيسنا بأن السلطان سيقيم فيها حفل زواج ابنى وابنته فى (هرمق) ، وأنه قد استعد لبدء الهجوم على (المور) ، فور انتهاء مراسم حفل الزفاف ..

وفى ذلك اليوم اعددنا كل شىء ، فيمـا عدا سد الممر الذى يصل ما بين مغارة مقابر ملوك (الأباتى) ،

وتمثال إله (الفنج) ، وكان الكابتن قد مد فيه كل اسلاك المتفجرات ، وجعل نهاية الأسلاك جميعها فى حجرته ، حيث يضع فراشه ، وحيث لقى (القط) مصرعه ، واقام حراسة مشددة على الحجرة ، خشية حدوث أية خيانات ..

وفى الرابعة تقريبا اتم العمال عملهم فى الممر ، وفجأة ظهر (جانيت) بادى الاضطراب ، وبلغ موقعنا حول البطاريات الكهربية وهو يلهث ، فهتف به الكابتن فى قلق :

— ماذا حدث ؟.. هل كشف (الفنج) امر الأسلاك وقطعوها ؟

اجابه (جانيت) فى انفعال :

— بل حدث ما هو اسوأ يا سيدى .. إن الأمير (جوشيا) يعد خطة لاختطاف زهرة (المور) وسليلة الملوك .

صعقنا الخبر ، وهتف الكابتن غاضبا :

— ماذا تقول يا رجل ؟.. قص علينا الأمر كله .

التقط (جانيت) انفاسه ، وهو يقول :

— إن لى صديقا وقريبا — ولن ابوح باسمه — يعمل فى خدمة الأمير ، ولقد شربنا معا اليوم بضعة

أقداح من الخمر ، حلت عقدة لسانه ، فإذا به يخبرنى مزهوا بوجود مؤامرة لاختطاف الملكة .

امسكه (اورم) من كتفيه ، وصاح به فى قوة :

ـ متى وكيف ؟

هز (جانيت) راسه فى انفعال ، وقال :

ـ لست ادرى ، هذا كل ما امكننى معرفته .

سألته فى حيرة :

ـ ولكن ما الذى يدعوه لاختطافها ؟

أجاب (جانيت) :

ـ ليصبح اكبر رجل فى (المور) .

ران علينا صمت ثقيل ، صنعته دهشتنا واستنكارنا لما سمعناه ، وسأل الكابتن (جانيت) فى انفعال :

ـ الم تعلم متى يتم ذلك تقريبا ؟

تردد (جانيت) لحظة ، ثم أجاب :

ـ بعد خمسة أيام تقريبا .

تنهد الكابتن فى ارتياح ، وقال :

ـ يوم السبت بعيد والحمد لله .

ثم سأله مرة أخرى فى اهتمام :

ـ قل لى يا (جانيت) : هل صديقك هذا صادق دوما ؟

هز (جافيت) رأسه نفيا ، وقال :

— إنه يكذب أحيانـــا ، ولكننى رأيت ضرورة إخباركم بما سمعت .

ربت الكابتن على كتفه ، وقال :

— حسنا فعلت .

انصرف (جافيت) وتوتره يلازمه ، فى حين التفت إلينا (أورم) ، وسألنا :

— ما رأيكم ؟

أجابه (هيجز) فى ضجر :

— إنهـــا بعض الشائعات ، التى تنتشر فى كل مكان .

قلت بدورى :

— أوافقك على هذا يا هيجز ، فلو إن صديق (جافيت) يعلم شيئا ، لما اكتفى بهذا القول المبهم ، ونصيحتى الا تذكروا الأمر لـ (مجيدة) ، حتى لا نثير قلقها بلا طائل .

هز الكابتن رأسه متفهما ، ثم التفت إلى (كويك) يسأله :

أجابه (كويك) بلا تردد :

— لست أوافقهمـــا إلا فى ضرورة عدم إزعـــاج سليلة الملوك بذكر الأمر ، ولكننى اثق فى أن (جانيت)

رجل أمين ، وغريزته تؤكد له أن شيئا ما يحاك ضد مليكته .

سأله الكابتن فى اهتمام :

ـ ماذا تقترح إذن ، لو أن هذا صحيح ؟

أمسك الجاويش عصا قصيرة ، وراح يخط بها بعض الخطوط على أرض الحجرة ، وهو يقول :

ـ هذا رسم تخطيطى لحجرة الملكة الخاصة ؛ هنا حجرتها ، وهنا مخدع الوصيفات والخادمات ؛ ثم جدار مرتفع ، يعقبه خندق عميق ، ولكن هناك ممر بعرض مترين ، يصل ما بين حجـــرة الحارس ومخدع الوصيفات ، والرأى عندى أن نقضى ليلنا أنا والأستاذ فى حجرة الحارس ، منذ هذه الليلة ، خشية أن يتم اختطافها قبل الأوان .

درس الكابتن الأمر لحظات فى صمت ، ثم قال فى حزم :

ـ فليكن ، ولكن ما رأى الأستاذ (هيجز) ؟

قال (هيجز) :

ـ اقتراح الجاويش رائع بحق .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ معذرة لخروجى عن النقاش ، ولكننى أحب

أن اصعد إلى الصخرة ، لأرقب ما يحدث ، عندما تنشب المعركة .

هز الكابتن كتفيه ، وقال :

— لن ترى سوى وميض والتماعات فى السماء .. والأفضل أن تصحب الجاويش إلى حجرة الحارس ، وتصطحبان معكما هاتف مبدان ، حتى يمكنكما الاتصال بنا ، وإبلاغنا بما يحدث أولا فأولا .

ضرب الجاويش كعبيه بعضهما ببعض ، وقال :

— اية أوامر اخرى يا سيدى ؟

قال الكابتن :

— لا يا (كويك) .. أنت تعلم اننى سأشمل اللغم فى تمام العاشرة ، فلقد أبلغنا جواسيسنا أن حفل الزفاف سيقام بعد ظهور البدر بثلاث ساعات كاملة .

أيد (هيجز) حديثه ، قائلا :

— هذا صحيح .. لقد سمعتهم يؤكدون هذا ، وانا فى سجنى .

قال (أورم) :

— لهذا السبب لن أشعل اللغم قبل العاشرة ، مهما كانت الأسباب ، حتى لا يصاب (رودريك) باى

ضرر ، وعليكما أن تتصلا بى وبالطبيب فى التاسعة والنصف .

تبادلنا التحية ، وصحبت أنا (هيجز) و (كويك) إلى حجرة الحارس ، وسألنى (كويك) هامسا :

ـ أتؤمن بالحاسة السادسة أيها الطبيب ؟

أجبته وأنا فى حيرة من سؤاله :

ـ بالطبع .. لماذا تسأل ؟

ابتسم ابتسامة حزينة وقال :

ـ شىء ما فى أعماقى ينبئنى أننى لن أراكم مرة أخرى بعد هذه الليلة ، وأن نهايتى قد حانت .

حاولت تهدئته ، قائلا :

ـ إنه بعض القلق يا (كويك) ، و . . .
قاطعنى فى هدوء :

ـ عدنى ، لو تحققت مخاوفى ، أن تعنوا بأبناء أخى الراحل ، وأن تخبروهم أن عمهم (صموبل كويك) قد قام بواجبه حتى النهاية .

شعرت فى أعماقى بأن مخاوفه على حق ، حتى

أن صوتى قد ارتجف ارتجافة خفية ، وانا اقول فى حزم :

— أعدك يا (كويك) .

لم ينتبه (هيجز) إلى حديثنا ، فقد كان مشغولا بالتطلع إلى معبود (الفنج) ، الذى سيهوى قبل مطلع الفجر ..

او نهوى نحن ..

من يدرى ؟!

* * *

١٠ ـ المعجزة ..

عدت إلى الكابتن ، الذى بقى وحيدا فى حجرته الشبيهة بالكهف ، وتركت (جانيت) يحرس الاسلاك ، ولم يكد الكابتن يرانى حتى ابتدرنى قائلا :

ـ قلبى يحدثنى بأن (مجيدة) معرضة لشر مستطير ، وأن قصة (جانيت) حقيقية ، ولقد رجتنى (مجيدة) أن تبقى الليلة فى رفقتنا ، ولكننى رفضت ، خشية أن يصيبنا مكروه عند انفجار اللغم ، فتصاب معنا ، و ...

ارتفع رنين الهاتف الميدانى فى تلك اللحظة ، فاختطف الكابتن سماعته فى لهفة ، وهتف :

ـ ماذا حدث ؟

اجابه (هيجز) فى بساطة :

ـ لا شىء ، فقط اردت أن اخبركما اننى والجاويش فى حجرة الحارس ، ويبدو أن القصر خال تماما ، إلا من ذلك الحارس ، فلقد خرج الجميع لرؤية الالعاب النارية ، حتى الوصيفات ،

ولقد حاول الحارس منعنا من البقاء فى حجرته ، بحجة أن هذا يتعارض مع أوامر الأمير (جوشيا) ، بشأن عدم اقتراب الغرباء من سليلة الملوك ، ولكن (كويك) صفعه صفعة جعلته يعدو كالمدوخ ، صارخا ومهددا بإبلاغ الأمير ، و ....

قطع حديثه بغتة ، على نحو أقلقنا ، فهتف به (أورم) :

— ماذا حدث عندك ؟

أجابنا صوته بعد لحظات :

— زهرة (المور) هنا ، وتريد أن تتحدث إلى الكابتن بنفسها .

انسحبت فى صمت ، لأترك لهما لحظات ، ينعمان فيها بمناجاة الحب والعشق ، ليبدد كل منهما توتره ومخاوفه ، وجلست خارج الحجرة صامتا ، حتى فوجئت بـ (جافيت) يهرع إلى ، وقد أخذ الرعب منه مأخذه ، فصحت به :

— ماذا أصابك ؟.. هل قطعت الأسلاك ؟

أجابنى وهو يلهث رعبا :

— لا ، وإنما رأيت شبح أحد ملوك (المور) فى الكهف .

أنهى (أورم) حديثه على الفور ، وتبادلنا أنا

وهو نظرة ذات مغزى ، ثم هب يسأل (جافيت) :

ـ هل قال شيئا ؟

أجابه (جافيت) وهو يرتعد :

ـ قال الكثير ، ولكنني لم أفهم سوى القليل ، فهو يتحدث بسرعة ، وبلغة تختلف عن لغتي كثيرا ، ولكن أظنه سألني كيف يجرؤ قومي على هدم معبوده ، فأجبته بأنني مجرد خادم مطيع ، وهنا قال بأن (هرمق) سيأتي إلى (المور) ، ويصفي حسابه مع (الاباتي) والغرباء .

تبادلنا نظرة أخرى ، وغمغم الكابتن :

ـ أظنها مجرد أوهام ومخاوف .

تطلعت إلى ساعتي ، وقلت في توتر :

ـ ليس لدينا وقت للتحقق منها ، فقد بقيت دقائق ثلاث فحسب على العاشرة .

اتخذ كل منا مجلسه في سرعة ، ونسينا أو تناسينا أمر ذلك الشبح ، وراحت الثواني تمضي بنا كالدهور ، حتى صاح الكابتن :

ـ أربع ثوان .. ثلاث .. اثنتين .. واحدة .

ثم ضغط زر التفجر ..

وانفتحت أبواب الجحيم على مصراعيها ..

* * *

كان ارتجاجا لم أعهد مثله من قبل ، ألقانا أرضا فى عنف ، ورأينا صخرة كبيرة تهوى لتسد الباب أمامنا ، وسمعنا أخرى تسقط بالقرب منا ، فتدك الأرض دكا ، وانهالت الأتربة فى غزارة ، حتى هدأت الأمور ، فنهضت ألتقط سماعة الهاتف ..

وهنا تناهى إلى مسامعى دوى طلقات نارية ، عبر أسلاك الهاتف ، وسمعت صوت (هيجز) يهتف :

ـ حذار يا (كويك) .

وأعقبه صوت (كويك) يصيح :

ـ اطمئن .. لقد أطلقت النار عليه ، ولن يمكنه إطلاق سهم آخر .

وارتفع صوت (مجيدة) تهتف :

ـ أين الكابتن ؟.. أريد أن أتحدث إليه ..

ناولت السماعة إلى (أورم) فى سرعة ، وسمعتها تستطرد :

ـ تعال بسرعة يا (أورم) .. لقد هاجمنا رجال (جوشيا) .. اسرع قبل أن يفتكوا بنا ، وأن ..

وهنا انقطع الاتصال ، وايقنا من ان احدهم قد قطع اسلاك الهاتف ، فألقى (أورم) السماعة من يده ، وهتف :

ـ اللعنة !!.. يا للخسة والخيانة !!

ووثب إلى البـــاب كليث غاضب ، وحاول أن يزحزح تلك الصخرة التى تعترضه فى يأس ، ثم لم يلبث ان راح يدور فى الحجرة كالمجنون ، ويضرب الصخرة بكتفيه ، حتى صحت به :

ـ أتريد ان تقتل نفســك ؟.. اهدأ واتركنى افكر .

ولكنه لم يبال بحديثى ، وإنما هتف بـ (جانيت) :

ـ احضر هذه المنضدة إلى هنا يا (جانيت) ، فهناك فراغ ضيق بين الصخرة والحـــافة العلوية للباب ، ولعلنى استطيع عبوره .

نجحت فكرته بالفعل ، وامكنه عبور تلك الفرجة ، وتبعته أنا و (جانيت) ، ورحنا نعدو نحن الثلاثة نحو القصر ، ولم نكد نجتاز ردهته حتى راينا بقع الدماء على الأرض ، فصاح (أورم) فى هلع :

ـ اسرعوا .. اسرعوا .

عبرنا الممر الذى يوصـــل إلى مخـــدع سليلة الملوك ، ووجدنا أنفسنا نسير فوق جثث ودماء ،

ووثب إلى الباب كليث غاضب ، وحاول أن يزحزح تلك الصخرة
التى تعترضه فى يأس ..

حتى بلغنا حجرة الحارس ، فانعقدت ألسنتنا من هول المشهد ..

كانت الحجرة مغطاة بجثث تسبح فى بحر من الدماء ، وكلهـا ترتدى الثياب الرسمية ، التى اختارها (جوشيا) لجنوده ، وعلى مقربة جلس (كويك) على مقعد ، وهناك سهم يخترق ظهره ، فى حين وقفت الملكة إلى جواره ، تمسك وجهه بقطعة من القماش المبتل ، وإلى جوارهما وقف (هيجز) والدماء تنزف من جراحه ، وخلفه ثلاث وصيفات يبكين وينتحبن ..

ولم يكد بصر (كويك) يقع علينا ، حتى ابتسم ابتسامة راضية ، على الرغم من الدماء التى تنزف من رأسه فى غزارة ، وأسلم الروح ..

وضم الكابتن (مجيدة) إليه ، وهتف فى ارتياع :

ـ ماذا حدث ؟

أجابه (هيجز) ، والحزن يثقل قلبه وصوته :

ـ سمعنا دوى الانفجار فى تمام العاشرة ، ولم نكد نهم بالخروج ، لرؤية ما حدث ، حتى قدم (جوشيا) ، ليعلن تدمير (هرمق) ، وطلب أن نرافقه مسلحين الملوك إلى قصره ، لأسباب سياسية هامة ، وأمر

على ذلك إصرارا دفعنا إلى طرده ، ولم يكد يغادرنا حتى انهالت علينا السهام ، وانقض علينا جمع كبير ، ينادى بضرورة قتلنا وانقاذ الملكة ، ونشب عراك بيننا وبينهم ، وأبلى الجاويش بلاء حسنا ، حتى ولى المهاجمون الادبار ، بعد ان اصابوا (كويك) بضربة سيف فى رأسه ، وعلى الرغم من إصابته راح يقاتل كالأسد ، حتى اطمأن إلى سلامة الملكة ، فارتمى خائر القوى ، إلى ان خر صريعا امامكما .

قال هذا ودموعه تنهمر فى غزارة ، فاخذنا نهدىء من نفسه ، ونفوسنا تبكى المأ وحسرة على (كويك) ، وحملنا جثة هذا الاخير إلى مخدع الملكة ، التى اصرت على ان يوضع من دافع عنها حتى الموت على فراشها ، وراحت تضمد جراح (اورم) ، وهى تقول فى توتر :

— لم نعد بمأمن هنا .. لقد فشلت مؤامرة عمى لاختطافى ، ولكنه لن يلبث ان يعود بألف من أعوانه .

سألها الكابتن مستنكرا :

— ماذا تعنين ؟.. هل نهرب من (المور) ؟

اجابته فى يأس :

ـ وكيف لنا أن نفعل ، ورجـال (جوشيا) يحرسون الطـريق ، و (الفنج) ينتظرونـكم فى الخارج .. إن (الأباتى) يكرهونكم ، وسيقتلونكم بلا تردد ، بعـد أن اتممتم ما ابقوا على حياتكم من اجله .. إنهم شـعب ناكـر للجميل ، وخطئى أن دفعتكم للمجىء إلى هذا البلد العاق .

وانخرطت فى بكاء حار ، فجثا (جانيت) عنـد قدميها ، وقال :

ايا سليلة الملوك ، استمعى إلى خادمك المخلص الامين ، فهناك ، على مسيرة خمسة كيلومترات ، يوجد خمسمائة من رجالك المخلصين ، يعملون تحت قيادتى ، ويفتدونك بالـروح والـدم ، فهلم نلحق بهم .. يمقتون (جوشيا) أشد المقت .

تطلعت (مجيدة) إلى الكابتن لحظات ، وكأنما تسأله المشورة ، ثم قالت :

ـ فكرة جيدة .. هلم بنا إلى هناك .

ولم تمض عشر دقائق حتى كنا نختفى فى معاطف ثقيلة ، ونختلط بالجموع المحتشدة ، التى اجتمعت فى الميـدان الكبير ، وراحت تشـير إلى صـخرة تتوسطه ..

صخرة على شكل أسد ..

وأمام ذهولنا ودهشتنا ، بدا لنا معبود (الفنج) واضحا ، وقد قذف به الانفجار إلى أرض (المور) ، وبدا (جافيت) شديد الرعب ، وهو يتطلع إلى هذا المشهد ، فربت (هيجز) على كتفه ، قائلا :

— لا ترتجف على هذا النحو يا رجل .

التفت إليه (جافيت) ، وقال فى ارتياع :

— ألم تفهم ما يعنيه هذا يا سيدى ؟.. لقد حلت اللعنة على (الأباتى) ، وبدلا من أن يرحل (الفنج) بعيدا ، فإنهم سيتبعون معبودهم إلى هنا.

وكان (جافيت) على حق ..

لقد انعكست الآية ، وصار على شعب (الأباتى) أن يقاتل من أجل حياته وحريته ..

أو يموت ..

* * *

١١ ـ عودة الغائب ..

لم نكد نبلغ موقع جيش (جافيت) الصغير ، حتى لمسنا الفارق الهائل بين الفرق المنظمة ، وسائر شعب (الاباتى) ، فقد اعترضنا فور اقترابنا من موقع الجيش جندى حراسة ، وشهر سيفه فى وجوهنا ، هاتفا فى صرامة :

ـ توقفوا ، واكشفوا عن شخصياتكم .

أجابه (جافيت) فى هدوء :

ـ إننى رئيسك .

قال الحارس فى حزم :

ـ معذرة يا سيدى ، ولكننى أصر على ان تكشفوا وجوهكم .

كشف (جافيت) وجهه للحارس ، الذى حياه فى احترام ، وكشفنا وجوهنا بدورنا ، فلم يكد الحارس يرى وجه (مجيدة) حتى خر ساجدا ، وهو يهتف :

ـ لبيك يا (أم النجاشى) وسليلة الملوك .

أجابته فى ترفع ، شف عن طبيعة الدماء الملكية ، التى تسرى فى عروقها :

ـ استدع فرقتك كلها ؛ لأبلغها اوامرى .

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى جثا أمامها خمسمائة رجل موفورى القوة والصحة ، ثم انتظموا فى صفوف منسقة ملتزمة ، فوقفت هى أمامهم تقول :

ـ أيها الرجال المخلصون ، لم يكد معبود (الفتح) ينهار الليلة ، حتى أتى عمى (جوشيا) ينشد قتلى ، أو سجنى فى قلعته عند البحيرة .

سرت همهمة غاضبة مستنكرة بين الجنود ، فأضافت فى حزم :

ـ الأسوأ هو أننى لم أكد أرغض ذلك ، حتى اصطحب عمى ثلة من رجاله ، لانتزاعى عنوة ، ولكن الأجانب الذين يخدموننى هبوا لنجدتى ، ودارت بينهم وبين جنود عمى معركة حامية الوطيس ، نجح خلالها الأجانب فى إجبار قوات عمى على الانحسار ، وعمى يجمع الآن أعوانه ، ليعيد الكرة .

تعالى صياحهم إلى عنان السماء ، وهم يهتفون :

ـ فداك دماؤنا وأرواحنا يا سليلة الملوك .. مرى نطع .. نحن رهن إشارتك يا زهرة (المور) .

ورفع أحد ضباطهم سيفه عاليا ، وهو يهتف :

ـ فلنسحق رأس الأفعى .

ولكنها صاحت مستنكرة :

ـ انشن حربا اهلية ؟.. انشعل نيران الفتنة وسط شعب يواجه عدوا مشترك ؟.. ثم كيف لكم بمواجهة جيش (جوشيا) الجرار ؟

سألها الكابتن :

ـ ماذا تقترحين إذن ؟

اعتدلت فى اعتزاز ، وهى تقول فى حزم :

ـ أن نعود مع هـذا الجيش الصـغير إلى القصر ؛ لنقف جميعا فى مواجهة الاعداء .

غمغم (هيجز) فى ألم :

ـ من الأفضل أن نسرع إذن ، فساقى تؤلمنى للغاية ، واكاد اسقط نائما بين ايديكم .

رفعت (مجيدة) ذراعها ، وهتفت :

ـ هيا يا رجال .. حلو الخيام ، واستعدوا للسير .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى تناهت إلى مسـامعنا جلبة ، وابصرنا رجلا يقوده بعض حراس الجيش الصغير إلينا ، وخيل إلى فى البداية انه جاسوس ، ثم لم البث ان انتبهت إلى ملابسه الغريبة ، وثوبه الفاخر ، وتلك القلادة الذهبية ، التى تزين عنقه ،

فرفعت عينى إلى وجهـــه ، وانطلقت من اعماقى شهقة قوية ، وانا اهتف :

ـ ولدى ؟.. (رودريك) ؟!

وفى اللحظـــة التالية كان كل منـــا بين ذراعى الآخر ، يغمر وجه صاحبه بالقبلات ، والتف حولنا الجميع فى سعادة لعثورى اخيرا على ابنى الضائع ، وهتفت به فى فرحة غامرة :

ـ كيف جئت إلى هنا ؟

اجابنى فى سعادة :

ـ على قدمى يا ولدى .

وهتف به (هيجز) :

ـ كنا نحسبك قد تزوجت الليلة يا (رودريك) .. أين زوجتك ؟

اطلق (رودريك) تنهيدة حارة ، تحمل الكثير من الخلاص والارتياح ، وهو يقول :

ـ لم يتم الزواج لحسن حظى .. لقد سارت المراسم سيرها الطبيعى ، وبقى ان يضع الكاهن عصاه على راسينا ، ليعلننا زوجا وزوجة ، وهنا ارعدت الدنيا ، واهتزت الجبال ، وســـاد الهرج والمرج ، وراح (الفنج) يعدون فى كل مكان ، وهم يصرخون : « سحر الرجل الأبيض قتل معبودنا ،

الذى لم يبرح مكانه منذ الخليقة .. إنه سحر الرجل الأبيض .. » ، وراح سلطان (الفنج) يشق ثوبه الملكى ، ويصرخ : « اجروا أيها (الفنج) .. هاجروا .. لا يجب أن يبقى واحد منا فى هذه الأرض ، بعد موت معبودنا . » ، وراحت خطيبتى ، ابنة السلطان ، تشق ثيابها بدورها ، وتلطم خديها ، وراحت تعدو مع الجموع الراكضة نحو الشرق والجنوب ، وقد اصيب الجميع بذعر هائل ، لم ار له مثيلا فى عمرى كله ، ولكننى انتهزت الفرصة ، وانطلقت انا نحو الغرب ، وقادنى ممر ضيق إلى هنا ، فأمسك بى هؤلاء القوم .

ضممته مرة اخرى إلى صدرى ، وانا اقول :

ـ مسكين انت يا ولدى .. استجرت من الرمضاء بالنار .

سألنى فى دهشة :

ـ ماذا تعنى يا ابى ؟

اجبته فى حزن :

ـ لقد تطاير رأس معبود (الفنج) مع الانفجار . وهو يرقد الآن فى سهول (المور) ، وهذا يعنى أن (الفنج) سيسعون إليه ، وسنقع جميعا فى قبضتهم .

هز رأسه ، وقال :

— لست اظن هذا يا والدى ، فـ (الفنج) يجهلون ما أصاب معبودهم ، إلا انه قد نسف نسفا ، ولقد هجروا (هرمق) إلى الشرق ، فور حدوث هذا ، ولن يكفوا عن ابتعادهم ، ما داموا يجهلون ان راس المعبود هنا .

درست كلماته فى راسى لحظات ، ثم قلت :

— ارجو ان تكون محقا يا ولدى .. ارجو ذلك من أعماق قلبى .

ثم ابتسمت ، مضيفا فى حنان :

— والآن تعال أقدمك إلى سليلة الملوك .

استقبلته الملكة فى حفاوة بالغة ، وانحنى هو يلثم اصابعها ، وهو يغمغم مفتونا :

— إنها اجمل إمراة رايتها فى عمرى كله يا ابى .

ولم يكن أول من تفتنه الملكة ..

* * *

عدنا ادراجنا إلى (المور) ، على راس جيش (جافيت) الصغير ، واعترضتنا حامية صغيرة ، على مشارف المدينة ، ولكن الملكة اعلنت عن شخصيتها ، فافسح لنا رجال الحامية الطريق ،

ـــ والآن تعال أقدمك إلى سليلة الملوك .

استقبلته الملكة فى حفاوة بالغة .

وابتعدوا على صـــهوة جيادهم ، يسبقوننـــا إلى المدينة ..

ولم نكد نبلغ المدينة حتى فوجئنـــا بأن أخبـــار الأسير الأبيض ، الذى عاد من بلاد (الفنج) على قدميه ، قد سبقتنا ، فأعلن (جافيت) أن (الفنج) قد هاجروا إلى الشرق ، وهم يجهلـــون ما حدث لمعبودهم ، وبددت هذه الأخبار حزن (الأباتى) ، وأشاعت بينهم الفـــرح ، وأطلقته من صدورهم ، فراحوا يرقصون ويهتفون فى الطرقات ، ويهنئون أنفسهم على شجاعتهم ، التى دفعت (الفنج) للفرار من وجوههم والهجرة إلى الشرق !! ..

ومضينا نحن ، وسط هـــذه الاحتفـــالات ، إلى القصر ، دون أن نلفت إلينا الأنظـــار ، ولكن فجأة اعترضنا جيش ضخم ، من ألف رجل ، وصـــاح قائدهم فى (جافيت) :

ـ كيف غاردتم موقعكم ؟.. من أمركم بهذا ؟

أجابه (جافيت) فى حزم :

ـ أمرنى من لا أملك مخالفة أوامره .

قال القائد فى صرامة :

ـ لو أنك تقصد البيض فأنت خاسر ؛ فلدينا

اوامر من اميرنا وقائدنا (جوشيا) بإلقاء القبض عليهم .

قال (جافيت) فى صوت جهورى :

ـ لقد امرتنى سليلة الملوك بحملهم إلى قصرها .

اجابه القائد فى صرامة وحدة :

ـ سليلة الملوك لا تملك إصدار قرار ، ما لم يقره المجلس .

وهنا كشفت (مجيدة) النقاب عن وجهها ، وصاحت فى غضب :

ـ اقبضوا على هذا القائد ايها الضباط ، بأمر مليكتكم ، واقطعوا رأسه ، وارسلوه إلى اميره (جوشيا) ، الذى دفعه إلى هذا .

شحب وجه القائد ، عندما رأى وجه (مجيدة) ، والقى نفسه عن جواده ، وركع عند قدميها يمسح وجهه فى ذيل ثوبها مستغفرا ، ولكنها قالت فى حزم :

ـ سنثأر لمقتل الجاويش .. نفذوا الأمر .

وفى اللحظة التالية كان الجيش الجرار يعود

أدراجه فى موكب حزين ، حاملاً رأس فائده ، فى حين صاحت (مجبدة) بجيش (جافيت) :

ـ هيا .. ستواصل سيرنا نحو القصر .

بدت كأحسن ما تبدو الملكة ، وهى تتقدم الجيش الصغير ، فى طريقها إلى القصر ..

ولكن فجأة حدث ما لم يكن فى الحسبان ..

لقد ارتد إلينا جيش الألف رجل ..

ارتد مقاتلا ..

* * *

تقول الأمثال إن الشدائد تبرز الرجال ..

وهذا ما حدث بالضبط ..

لقد كان جيش (جوشـــيا) ضعف تعداد جيش (جافيت) ، ولكن رجال هذا الأخير كانوا من خيرة الرجـــال ، ولقـــد تجلت شجاعتهم واستعداداتهم القتالية على الفور ..

ودار القتال حامى الوطيس لنصف الساعة فقط ، وبعدها انطلق من تبقى من جيش (جوشيا) يولى الأدبار ، وقد فقدوا نصف رجالهم ، فى حين لم يفقد جيش (جافيت) سوى خمسين رجلا فحسب ..

ودخلنا القصر الملكى مع الفجر دخول الظافرين ، ولكننا وجدنا بعض النيران تشتعل فيه ، فأسرعنا نطفئها ، حتى هدأت الأمور مع مشرق الشمس .. وعادت الملكة إلى عرشها ..

* * *

كنت أتحدث مع ولدى (رودريك) فى الصباح التالى ، عندما جاء (جافيت) يدعونا لمقابلة سليلة الملوك ، فأسرعنا إليها ، واستقبلتنا فى صوت حزين أسف ، وهى تقول :

— عبر أحد السهام نافذة حجرتى فى الصباح ، حاملا رسالة من عمى (جوشيا) ، يقول فيها : « فلتسلم (أم النجاشى) لنا ضيوفها البيض ، الذين أفسدوا عقلها ، ودفعوها إلى إراقة دماء شعبها ، وإن تسلمنا معهم جيش (جافيت) ، حتى نعفو عنها وعن الشعب ، ونتخذها زوجة لنا ، وإلا فسنعمل سيوفنا فى رقاب الجميع بلا رحمة » .

ثم رفعت رأسها إلينا ، وسألت :

— ما رأيكم ؟

قال الكابتن :

ـ إننا بين المطرقة والسندان فى الواقع ، فإما ان يهاجمنا (جوشيا) واعوانه ، او يحاصروننا حتى نموت جوعا .

غمغمت فى شحوب :

ـ لقد نسيت احد شروط هذا الفاجر يا كابتن .

واشارت إلى الفقرة التى يطلب فيها (جوشيا) الزواج منها ، ثم اعتدلت قائلة ، وهى تبرز خطابا مكتوبا :

ـ على اية حال ، لقد اجبت خطاب (جوشيا) بالفعل .

وراحت تقرأ :

ـ « يا شعبى الثائر ورعيتى المتمردة .. سلمونى عمى (جوشيا) واعضاء المجلس الذين تمردوا على حكمى ، فاحاكمهم واعفو عن الآخرين ، وإلا فإنه مع اكتمال القمر سيقع لبلاد (المور) ما وقع لبلاد (هرمق) ، وهذا ما هبط به الوحى على ، ولتعلموا ان املكم الوحيد فى مليكتكم ، وضيوفها البيض » .

سألتها فى دهشة :

ـ ماذا تعنين بالوحى الذى هبط عليك ؟

أجابتنى فى هدوء :

ـ لقد غرقت فى نوم عميق مع الفجر ، وشاهدت فى نومى امراة سمراء ، مهيبة وقور ، عرفت فيهـا جـدتى (بلقيس) ، التى تطلعت إلى فى مزيج من الحب والأسى، ثم ازاحت من امامى ستار المستقبل ، فرايت البدر يتوسط السماء ، وتحته بلاد (المور) اطلالا ، وقد اكتظت شوارعها بالقتلى .

تمتم الأستاذ (هيجز) :

ـ إنها مجرد نبوءة عبرانية قديمة .

فوجئت بولدى (رودريك) يقول :

ـ لقد انتهى عهد (الأباتى) .

التفتنا إليه جميعـا فى دهشـة ، فاستطرد فى جدية :

ـ لقد علمنى كاهن قديم تفسير الأحلام ، وهذا الحلم يعنى نهـاية شعب (الأباتى) ، مع اكتمال القمر .

اما الكابتن ، فقد واجه (مجيدة) ، قائلا فى قلق :

— هل تعلمين أن جوابك على رسالة عمك ، يعنى إشعال حرب غير متكافئة ؟

اجابته فى هدوء ، وهى تتطلع إلى حشود (الاباتى) ، فى الميدان المواجه لقصرها :

— من يعلم كيف تنتهى هذه الحرب ؟

وبدا قولها أقرب إلى الصواب ..

نعم .. من يعلم ؟..

* * *

١٢ ـ الهزيمـة ..

لم تكن الحرب متكافئة بالفعل ، فجيش (جانيت) لا يعدو سدس حجم جيش (جوشيا) ، ثم أن المؤن فى القصر لم تكن تكفى إلا لثلاثة أيام فقط ، بالإضافة إلى أن أبواب القصر وأثاثاته كانت مصنوعة فى الغالب من الخشب ، مما يجعل اشتعال الحرائق أمرا متوقعا ميسورا ، وعلى الرغم من ذلك فقد رحنا نحكم المزاليج ، ونوزع الحراس على المنافذ والأبواب ..

وطيلة الأيام الثلاثة التالية ، حاول (الأباتى) اقتحام إحدى البوابات ، إلا اننا اصليناهم نيران مسدساتنا وبنادقنا ، وسهام رجال (جانيت) ، حتى ولوا هاربين ، وبعدها اكتفوا بمحاصرتنا ، حتى يغلبنا الجوع ، ونضطر إلى التسليم ..

وراودتنا فكرة أن نخرج إليهم ونقاتلهم ، وكان من رأى (جانيت) أن الموت فى ساحة المعركة أشرف منه على المشانق ، ولم يؤيد هذا القول إلا ذلك الجوع الذى نهش امعاءنا ، مع نفاد المؤن ، فاتخذنا قرارا بالخروج لقتال (الأباتى) فى الصباح التالى ، مهما كانت النتائج ..

ولكن القدر لم يمهلنا لنفعل ..

لم تكد تشرق شمس الصباح التالى ، حتى بدا لنا أن سيلا من الشهب يسقط على القصر ، من قمة الصخرة المشرفة عليه ، فهتف الكابتن :

— يا إلهى !.. اى شهب هذه ؟

ثم لم يلبث أن صاح ملتاعا :

— رباه !! إنها اسهم مشتعلة .. اقرع ناقوس الخطر يا (آدمز) .

وهوت الأسهم المشتعلة على القصر ، وراحت النيران تندلع فى كل ركن من القصر ، واصابنا ذعر هائل ، ونحن نعدو من بقعة إلى بقعة ، وكلما اطفأنا ركنا اشتعل آخر ، واصابت النيران بعض الرجال ، فراحوا يعدون فى الم ورعب ، كجمرات ملتهبة حية ، وراحت وصيفات الملكة يصرخن ويعولن فى رعب قاتل ، وارتفع صوت (جوشيا) من الخارج ، يهتف برجاله :

— اقتلوا من تشاءون ، ولكن الويل كل الويل لمن يمس شعرة واحدة من راس سليلة الملوك .

هوت الضربات على الأبواب فى عنف ، وصاحت

الملكة بوصيفاتها ، تطلب منهن الفرار بانفسهن ، فاطعنها فى ارتياح ، فى حين امسك الكابتن بيد الملكة ، وهتف :

ـ تعالوا .

صاحت فى عناد :

ـ لا .. إننى أفضل الاحتراق حية ، على تسليم نفسى لـ (جوشيا) .

صاح بها :

ـ لن نذهب إلى (جوشيا) .. سنذهب إلى الكهف ، حيث مقابر ملوك (الاباتى) ، ففى نفق ضيق كهذا يستطيع اربعة رجال ببنادقهم صد آلاف (الاباتى) .. هيا يا (جافيت) .

انطلقنا إلى الكهف ، وعبرنا مغارة مقابر الملوك ، واشار (جافيت) إلى السرداب الذى يربط ما بين الكهف ومغارة الأسود ، وقال :

ـ يمكننا ان نفر من هنا .

اعترض (هيجز) فى خوف :

ـ وما الفائدة ؟.. سنفر من (الاباتى) لنقع فى أيدى (الفنج) .

هتف ولدى (رودريك) :

ـ لا .. لقد رحل كل (الفنج) عن (هرمق) .

وافقنا على اقتراح (جافيت) ، بناء على رأى (رودريك) ، ولكن هيهات ..

كان السرداب قد انسد تماما بالأحجار والصخور ، من جراء الانفجار ، ولم يكن عددنا أو حالنا يصلح لرفعها ، فأصابنا اليأس مرة أخرى ، وخاصة مع ضعف المشاعل ، وقرب انطفاء نيرانها ..

ثم لفظت المشاعل أنفاسها الأخيرة ، وتركتنا فى ظلام دامس ، والجوع ينهش أمعاءنا ..

وفجأة هتف (جافيت) ، وهو يجثو عند قدمى الملكة :

ـ أيا سليلة الملوك .. عبدك (جافيت) شجاع صنديد فى ضوء الشمس وتحت النجوم ، ولكنه هنا ، وسط الجوع والظلام ، أشد جبنا من (جوشيا) .. أرجوك يا مليكتى ، دعينا نعد إلى النور ، ونسلم أنفسنا للأمير ، فقد يعفو عنا ، ويحفظ حياتنا .

هزت (مجيدة) رأسها فى صمت ، فاتجه (جافيت) إلى الكابتن ، مستطردا :

ـ أترضى يا سيدى أن تكون سبب مصرع سليلة الملوك جوعا وعطشا ؟

الا يدفعك حبك لها إلى صونها من الهلاك ؟

أجابه الكابتن فى صوت ضعيف ، بدا وكأنه ينبعث من أحد القبور :

ـ أنت على حق يا (جانيت) .. اصغى إليه يا (مجيدة) ، إننا سنموت بيد الجوع او بايدى (الأباتى) ، اما انت فخروجك من هنا يعنى نجاتك حتما ؛ لأن (جوشيا) لن يمسك بسوء .. هيا يا (مجيدة) .. ارحلى .. ارحلى لتنجى بعمرك .

اجابته فى انفعال ، على الرغم من ضعفها وتهالكها :

ـ لا يا (أورم) .. إننى أفضل الموت على الزواج من ذلك الفاسق (جوشيا) .. وليمنحنى القدر فرصة ان اموت إلى جوارك .. مر (جانيت) بالتزام الصمت ، أو اطرده من هنا ، حتى لا يزعجنى مرة أخرى .

ولم يعد (جانيت) إلى هذا الحديث بعدها .. ابدا ..

* * *

قضـــينا فى ذلك الكهف يومين كـــاملين ، نهش خلالهما الجوع امعاءنا ، ولم يكف ذلك القدر الضئيل من الميـــاه لمنحنا شـــيئا من الطاقة ، ولقد اختفى (جانيت) ، ولكن ذلك لم يلفت انتباهنا كثيرا ، فقد ادركنا انه قد ذهب ليموت فى مكان ما ، وشعرنا أن الموت يحيط بنا كلنا مثله ، وراح الضعف يحيط بى فى شدة ، واذكر ان آخـــر عود ثقاب اشعلته قـــد جعلنى ارى الاستاذ (هيجز) ، وهو يخط بضـــع كلمات على قبعته ، وهو يظنها مفكرته ، وقد ارتدى منظاره ، على الرغم من الظلمة ، وإلى جواره وقف (رودريك) ينشـــد بالعربية والإنجليزية ، وعلى مقربـــة منهمـــا رايت (مجيدة) تجلس إلى جوار (اورم) ، وقـــد احاطها هو بذراعيه فى حنـــان ، واسندت هى راسها إلى كتفه ..

ثم غمر وجهى ضوء قوى ..

وفقدت الوعى ..

وفجاة استيقظت ..

استيقظت لاجد نفسى فى حجرة كبيرة ، راقدا على فراش وثير ، وإلى جوارى يرقد (هيجز) والكابتن و (رودريك) ..

ثم دخل خدم (الاباتى) يحملون الطعام ، وراحوا يطعموننا ، ثم تركونا نعود إلى النوم ..

وتساءلت عما يعنيه هذا ..

أهو حلم ؟..

أهو أمل بالنجاة ؟..

ولكن لا ..

إن مذاق الحساء واللحم ما زال فى فمى ، وبين أسنانى ..

إنها حقيقة إذن ..

لقد نجونا ..

لقد اخرجونا من الكهف ، وحملونـــا إلى هـــذا المكان !.

ولكن مّن فعل هذا ؟..

ولمـــاذا ؟..

لمـــاذا ابقوا على حياتنا ؟..

لم أجد جوابا لكل هذه الاسئلة ، ولم أحاول حتى

ان القيها على خـــدم (الاباتى) ، الذى اطعموننا الحسّاء واللحم خمس مرات فى يوم واحـــد ، حتى استعدنا عافيتنـــا ، ورايت (هيجز) يجلس على فراشـه ، ويحدق فى وجهى ، قائلا

ـــ انجونا ، ام انه يوم الحساب ؟

اجبته فى خنوت :

ـــ الارجح انه يوم الحســاب .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ لو اننا وقعنا فى ايدى (الاباتى) ، فالجواب الاصح هو اننا فى الجحيم .

ثم هتف بالكابتن :

ـــ استيقظ يا (اورم) .. لقد خرجنا من الكهف على اية حال .

نهض الكابتن ، وتطلع إلينا لحظة ، ثم ســالنا :

ـــ اين (مجيدة) ؟

لم نملك جوابـــا لســـؤاله ، ولكن (رودريك) اجاب :

ـ لقد حملونا إلى خارج الكهف ، وكان (جافيت) معهم .. ولقد رايتهم يحملون سليلة الملوك إلى جهة اخرى .

حاولنا هذه المرة ان نلقى بعض الأسئلة على الخدم ، ولكنهم رفضوا رفضا باتا منحنا اية أجوبة ، ولقد سمعت احدهم يهمس لزميله ، وهما يغادران الحجرة :

ـ متى تنتهى خدمتنا لهؤلاء الأوغاد البيض ؟

أجابه زميله :

ـ سيقرر المجلس هذا ، فى غضون يوم أو يومين .

وعند الغروب سمعنا أصواتا تهتف أسفل النافذة :

ـ أعطونا الغرباء .. نريد الغرباء .. لقد سئمنا الانتظار .

فغمغم الأستاذ (هيجز) :

ـ من المقلاة إلى النار مرة ثانية .

وبدا لى قوله أقرب ما يكون إلى الصواب ..

لقد نجونا من الموت فى الكهف ، لنقع فى أيدى من يمقتوننا أشد المقت ..

ولقد بقينا فى هذا الكهف ثلاثة أيام ، نعمنا فيها باطايب الطعام والشراب ، كالنعاج التى يتم تسمينها للذبح ، وفى اليوم الرابع ، وبعد أن انتهينا من تناول طعام الافطار ، اقتحم عدد من الجنود حجرتنا ، بقيادة ضابط غليظ خشن الطباع ، أخبرنا فى شماتة اننا سنذهب إلى المجلس ، لنحاكم أمام سليلة الملوك ، بتهمة قتل عدد من الرعية ..

وذهبنا ونحن نجهل مصيرنا هذه المرة ..

نجهله تماما ..

* * *

١٣ ـ المحـاكمة ..

مضينا إلى المجلس وسط حلقة من الجند ، تعمل على حمايتنـا من غضب الشـعب ، حيث راحت النسـاء يلوحن بقبضاتهن فى وجوهنا ، ويبصقن علينا ، فى حين رشقنا الأطفال بالحجارة ، ووجوه الجميع تحمل كل الكراهيـة والتشفى والبغض ، فسألنى (رودريك) ، وهو يدلك كتفه ، بعد إصابته بحجر :

ـ لمـا يكرهونكم على هذا النحو يا والدى ، على الرغم من كل ما اديتم لهم من خدمات ؟

اجبته فى حزن :

ـ لأن الملكة تحب أحدنـا يا ولـدى ، ولأنهم يكرهون الاجانب ، وككل الجبنـاء ، سيسـعون للانتقام منا ، بعد ان أمنوا شر (الفنج) ، واصبحوا بلا حاجة لوجودنا .

غمغم فى غضب :

ـ كم اتمنى أن يدرك (الفنج) خطاهم ، ويعودا للثار من هؤلاء الجبناء .

بلغنا مجلس الملكة الكبير فى صعوبة ، وبعد ان أصابنا بعض الحصى والحجارة واخترقنا صفوف وجموع النبلاء والكهنة والقادة ، الذين راحوا يسخرون منا ، ويعبرون عن شماتتهم ومقتهم ، حتى وضعنا الحراس فى المكان المخصص للمتهمين ، إلى يسار عرش (مجيدة) ، التى اخفى نقابها الموشى بالنجوم الفضية وجهها ، وسمعت الكابتن يتنهد فى ارتياح ، وهو يقول :

ـ حمداً لله .. إنها بخير .

قال (هيجز) فى حنق :

ـ كان ينبغى أن تتخذ مكانها إلى جوارنا ، فى قفص الاتهام ، لا فوق العرش .

اشار إليه الكابتن بالصمت ، ونهض ممثل الاتهام يتهمنا باننا قد انتهزنا فرصة وجودنا على راس جيش (المور) ؛ لنثير حربا اهلية ، ونشعل نيران الفتنة وسط شعب (الاباتى)، مما تسبب فى إراقة دماء العديد من الاهالى بأيدى بعضهم البعض ، إلى جوار من قتلناهم بأيدينا ، ثم اختطفنا الملكة ، وهربنا إلى مدينة الأرواح تحت الأرض ، لولا ان كان بيننا (جانيت) ، احد رجالهم المخلصين ، الذى كشف لهم عن مخبئنا ..

وانتهى ممثل الاتهام من حديثه ، فسألنا القاضى :
ـ هل هذا صحيح ؟

نهض الكابتن نيابة عنا ، وقال :
ـ ليس هناك مجال لاتهامنا بقتل من سقطوا فى ساحة القتال ، فقد كنا ندافع عن حياتنا ، ثم إننا لم نبدأ تلك الحرب الأهلية ، بل بداها أميركم .

سرت همهمة غاضبة وسط الحضـــور ، ولكن الكابتن تجاهلهـــا تماما ، وهو يواصـــل حديثه فى شجاعة :
ـ أما عن باقى الاتهـــامات ، فساترك لسليلة الملوك وحدها التحدث عنها ؛ لأنهـــا تعرف حقيقة ما حدث .

صاح بعض المتفرجين :
ـ لقد اعترفوا بجريمة القتل .. أصدروا الحكم بإعدامهم فورا .

نهض القضـــاة من مجالسهم ، والتفـــوا حول (مجيدة) ، يشاورونها فى الأمر ، وقضوا حولهـــا بعض الوقت ، ثم عـــادوا إلى مقاعدهم ، فرفعت (مجيدة) يدها ، وساد المكان صمت تام ، قبل أن تقطعه هى ، قائلة فى برود :

ـ لقد اعترفتم أيها الغرباء بإثارة حرب أهلية ، أهدرت فيهـا دماء وارواح بريئة طاهرة ، وهـذا لا يحتاج إلى أدلة او براهين ، فدمـوع اليتـامى والأرامل ودماء الشهداء تشهد بذلك ، ثم تأتى جريمة اختطافى ، واحتجازى فى أرض الأرواح ، لتضمنوا سلامتكم .

سمعنا حديثها ، وعقد السنتنا فى حلوقنا من فرط الذهول ، فى حين تابعت هى بنفس اللهجة الباردة :

ـ إنكم تستحقون ما هو شر من الموت ، بسبب هذه الجرائم ، ولكننا سنذكر لكم تدميركم لمعبـود (الفنج) ، وسنعفو عنكم بالنسبة للإعدام ، ولكننى آمركم بالرحيل اليوم إلى بلادكم ، بما لكم من متاع ، وبما جلبتموه معكم من مقبـرة الملوك ، والويل لكم لو عدتم إلى هذه البلاد ، ولتحمدوا الله ؛ لأنكم وجدتم شعبنا كريمـا ، أصر على التمسك بالاتفـاق بين مجلسـه وبين جماعة من البيض الغربـاء ، حتى لا يوصم بالتنـازل عن شرفه يومـا .. ارحلوا ، ولا تدعونا نرى وجوهكم بعداليوم .

هتف البعض مؤيدين ، وصـاح البعض الآخـر غاضبا :

ـ لا .. لا .. يجب أن يقتلوا .

اشارت (مجيدة) بيدها فى صرامة ، فعاد الصمت يسود المكان ، لتقول هى فى حزم :

ـ حذار أن يصمكم التاريخ بأنكم شعب من القساة الجبناء ، معدومى الشرف .. لقد دعونا حفنة من كلاب البيض لتصطاد لنا وحشا يحمل اسم (هرمق) ، ولقد نجحوا فى مهمتهم ، واحسنوا الصيد ، ويستحقون ان نبقى على حياتهم ، وان نمنحهم كومة العظام التى ارتضوها أجرا لهم ، والتى يتصورون انهم قد ربحوها بعرق الجبين .. وما قيمة حفنة من العظام عند شعب عظيم مثلكم ، لم يلوث ارضه بدماء كلاب بيض .

نقل حديثها الحماس إلى قلوب الجميع ، فارتفع هتاف هادر :

ـ فليرحلوا .. اربطوهم إلى ظهور الجمال ، وليرحلوا بعيدا .

قالت فى حزم :

ـ هذا ما سنفعله ، ولكن لدى كلمة لكم يا شعبى .. لقد تصور بعضكم أو ظن اننى احب احد هؤلاء الكلاب البيض ، ولكنكم نسيتم انه هناك نوع من الكلاب لا يعمل إلا إذا ربتنا على راسه ،

وهذا ما فعلته مع احد هؤلاء البيض ، فقد رحت اربت على راسه ؛ لاستغل علومه ومواهبه ، وادواته الجهنمية ، التى هدمت معبود (الفنج) .. اتصورتم يا شعبى المجيد أن حفيدة (سليمان) و (بلقيس) ، وابنة الملوك والحكمة ، وزهرة (المور) ، يمكنها أن تهبط من عرشها ، وتمنح قلبها لغريب ضال ، جاء يسعى خلف كنوز الملك (سليمان) ؟.. لا .. إننى ارثى لحال هذا الغريب ، الذى تصور يوما اننى قد احببته ، وادعوه فى الغد لحضور حفل زفافى إلى الرجل الذى وهبته نفسى .

ومدت يدها إلى (جوشيا) ، الذى انحنى يلثم اصابعها مزهوا فخورا ، وتمتم ببضع كلمات لم تبلغ مسامعنا ، وسط دوى القاعة بالهتاف والتصفيق ، إلى ان علا صوت الكابتن كل الأصوات ، وهو يقول :

ـ لقد سمعنا كل شىء .

ران الصمت على القاعة إثر صيحته ، وتطلع إليه الجميع ، فانخفض صوته ، وهو يقول فى حزم بارد :

ـ سمعنا حديثك يا سليلة الملوك ، ونشكر لك اعترافك بخدماتنا ، ومخاطرتنا بأرواحنا فى سبيل هدم معبود (الفنج) ؛ ونعترف بكرمك عندما تطلقين

سراحنـــا ، وتمنحيننـــا ما وعدت من مكافآت مقابل ذلك ، وهذا دليل على كرم شعب (الاباتى) ، الذى سنذكره دوما ، لو قدر لنا العودة إلى وطننـــا ، ولكن لى رجاء اخير يا زهرة (المور) .

مالت بجسدها إلى الامام ، وكأنما يهمها كثيرا ان تستمع إلى مطلبه ، فقال فى صوت قوى :

— اريد ان أرى وجهك لآخر مرة ، دون نقاب ، لاتأكد من ان من أستمع إليهـــا هى نفســـها سليلة الملوك ، لا امرأة اخرى متنكرة فى ثوبها وصوتها .

ران الصمت تماما بعد كلماته ، واتجهت العيون كلهـــا إلى حيث تجلس (مجيدة) ، وكأنمـــا تملكهم الشغف لمعرفة رد فعلها وجوابها ..

وفى بطء شديد ، رفعت (مجيدة) نقابها ..

وتراجع الكابتن فى دهشة ..

بل تراجعنا جميعا ..

لقد بدت لنا (مجيدة) اخرى ..

(مجيدة) الشـــاحبة الذابلة ، وكأنهـــا هيكل أو شبح امرأة ..

وادركنا جميعا لحظتها سر موقفها النبيل ، ومدى معاناتها ، وهى تلعب ذلك الدور الهائل ، مضحية بنفسها فى سبيل إنقاذنا ..

وهنا سقط الكابتن ..

سقط مغشيا عليه ، وكأنما لم يحتمل كل ذلك القدر من العواطف والانفعالات ..

وكادت (مجيدة) تهوى خلفه ، لولا أن تشبثت بذراعى عرشها ، وبذلت أقصى جهدها لتبدو هادئة ساكنة ، وهى تقول :

— لقد فقد وعيه لما لحقه من إهانات .. اتركوا لرفيقه الطبيب (آدمز) مهمة العناية به ، وعندما يستعيد وعيه اخرجوهم من (المور) ، وامنحوهم مؤن تكفى لأربعة أيام ، ولا يمسهم احد بأذى ، حتى لا يقال إننا قد اطلقنا سراحهم لنقتلهم الما وجوعا بعيدا عن ابوابنا .

ولوحت بيدها معلنة انتهاء المجلس ، ونهضت مغادرة المكان ، وخلفها كهنتها وقوادها ووزراؤها ..

وحمل بعض (الأباتى) الكابتن على محفة ، وسمعت احدهم يقول فى سخرية :

— انظروا إلى ذلك الكلب الأبيض ، الذى منى نفسه بالحصول على زهرة (المور) ، فلم يحصد سوى الندم والعار .. اظنه قد لقى حتفه كمدا .

شاركه الباقون سخريته وتهكمه وشماتته حتى

بلغنا سجننـــا ، فرحت أعمل على إنعاش الكابتن ، حتى استعاد وعيه ، وقال فى هدوء :

ـــ لقد رأيتم ما حدث يا رفاق ، وأستحلفكم بحق السماء الا يذكر احدكم (مجيدة) بسوء ، والا يتحدث عن هذا الأمر مرة اخرى .

وعدناه بتحقيق رغبته ، فى حين اشـــاح ولدى (رودريك) بوجهه ، وابتسم ابتسامة غامضة ، أم أنهم مغزاها لحظتها ، ولكننى لم أسأله ، بل اكتفيت بأن تناولنا جميعا الطعام ، ولم نكد ننتهى من تناوله حتى دخل ضابط من ضباط (الأباتى) إلى حجرتنا ، يأمرنا بالاستعداد للرحيل ، وخلفه عدد من الجنود يلقون إلينا بملابسنا ومعاطف تقينا شر البرد القارس ليـــلا ..

وأبدلنا بثيابنا ثيابا نظيفة ، ثم خرجنا إلى حيث تنتظرنا بعض الجمال ، أدركت عنـــدما وقع بصرى عليها انها من أجود انواع الجمال ، وقال الضابط فى صرامة :

ـــ هيا أيها الغرباء .. راجعوا أمتعتكم ، حتى لا تدعوا أننا قد سرقنا منكم شيئا .. ها هى ذخيرتكم والمابكم النارية ، ولكننا لن نسلمها لكم قبل نهاية الطريق ، وستتبعكم جمال تحمل صناديق العظام

التى طلبتموها أجرا ، وأخرى تحوى بعض الآثار ، التى طلبها (هيجز) .. ولقد أمرت الملكة الا تفتحوا هذه الصناديق قبل بلوغكم (مصر) ، حتى لا تجادلوا فى أمـــر المكافأة أو قيمتهـــا ، والجمل الأخير يحمل طعامكم .. هيا .. لقد حان موعد رحيلكم .

امتطينا صهوات الجياد ، ورافقنا الحراس حتى نهاية الطـــريق ، حيث كانت تنتظرنـــا جماعة من الناقمين ، الذين راحوا يمطروننا بأقذع الألفـــاظ ، حتى أتصاهم الجند عنا ، والقى أحد هؤلاء الناقمين علينا بيضة فاسدة ، تحطمت على أنف (هيجز) ، وسالت على وجهه ، فراح يسب ساخطا ناقما ، فى حين انفجرت أنا ضاحكا للمشهد ، وبددت ضحكته جو الكآبة المخيم على الموقف ، ثم لم تلبث أن اختنقت فى حلقى ، عنـــدما وقع بصرى على رجل فى أبهى حلله ، يمتطى جوادا أشهب ، وينتظرنـــا ممتشقا سيفه ، وسط ثلة من رجاله ..

كان أكثر شخص يبغضنا فى هذا العالم ..

الأمير (جوشيا) ..

* * *

١٤ ـ الختـام ..

كان أول ما جال بخاطرنا ، فى تلك اللحظة ، هو ان (جوشيا) يضمر لنا شرا ، وانه ما وقف ينتظرنا خارج ابواب (المور) ، إلا ليمزقنا إربا مع جنوده ، إلا انه اكتفى بابتسامة ساخرة ، وهو ينحنى فى تهكم ، قائلا :

ـ الوداع ايها الضيوف الأعزاء .. ارجو لكم رحلة طيبة آمنة .

ثم التفت إلى الكابتن ، واستطرد :

ـ اما انت ايها الوسيم ، فسليلة الملوك تبلغك انها تاسف ؛ لأنك لن تشاهد حفل زفافها إلى الليلة ، فلقد خشيت ان يثور قومها لرؤيتك ، فيقتلوك وتسيل دماؤك ليلة عرسنا ، ولقد ارسلتنى لأخبرك انها تتمنى لو كنت قد وعيت الدرس ، حتى لا تتصور لاحقا ان عطف صاحبة المصلحة عليك حب ، فتفكر فى عبارتها ، واشرب الليلة نخب زهرة (المور) وزوجها الأمير (جوشيا) .

واجهه الكابتن فى برود ، وقال :

ـ من يدرى على اى أمر تشرق شمس الغد يا (جوشيا) .. العبرة دائما بخواتم الأمور ،

لا ببداياتها ، وثق انه من عاش بالسيف مات به ، وان حياتك التى بنيتها على الغدر ستنتهى بغدر ، وان من يضحك أخيرا يضحك كثيرا ، وكان ينبغى ان تطلب منى الصفح عن شماتتك وشتائمك ، التى انهلت بها على رءوس من لا يملكون القوة على الثأر والانتقام .

قال هذا وواصل طريقه ونحن خلفه ، فى حين سمعنا (جوشيا) من خلفنا يسأل احد رجاله فى دهشة :

ـ ما الذى يعنيه هذا الخنزير ؟ .

ولكننا لم نتوقف ، وواصلنا السير حتى ابتعدنا عن (جوشيا) ورجاله ، وابواب (المور) ، وغابت كلها عن ابصارنا ، فإذا بالأستاذ (هيجز) ينفجر ضاحكا ، على نحو أثار دهشتنا ، فسأله الكابتن :

ـ وماذا هناك ؟

اوقف (هيجز) جمله ، وهبط من على ظهره ، واندفع إلى احد الجمال المحمله بالصناديق ، وهو يهتف :

ـ لا تسأل وانت تجلس هناك .. هلم وساعدنى لنفتح احد هذه الصناديق .

قال الكابتن فى حذر :

ـ ولكن أوامر الملكة ..

قاطعه فى انفعال :

ـ دعك من هذا .. هيا وعاونى .

عاوناه جميعا على إنزال أحد الصناديق الثقيلة ، وهتف هو فى انفعال ، وهو يزيل رتاج الصندوق :

ـ لن يمكنكم أن تتصوروا حجم المكافاة التى حصلنا عليها ، والتى انتقيتها بنفسى من مقابر ملوك (المور) .

فتحنا الصندوق ، وتراجعنا مبهورين ..

كانت هنـاك أكـوام من الذهب والمجوهرات والتحف الأثرية والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها ..

والتمعت التحف والمجوهـرات تحت أشـعة الشمس الآفلة ، وهتف (هيجز) ، وهو يشير إلى الصناديق التى تحملها الجمال الأخرى :

ـ كل صندوق من هذه يحمل نفس الأشياء .. لقد منحتنا الملكة كنزا ، مقابل ما فعلنا .. منحتنا كنوز الملك (سليمان) .

قلت فى انفعال ، وأنا أتطلع إلى الكنز :

ـ لا تنسـوا نصيب الجاويش (كويك) .. سيحصل على عشرة فى المـائة من كنـوز الملك

(سليمان) ، وسنقدمها إلى أبناء شقيقه الراحل ، وا . . . .

وقع بصرى فى تلك اللحظة على وجه الكابتن ، الذى بدا باردا ، خاليـــا من الانفعالات ، فبترت عبارتى ؛ لأسأله فى دهشة :

ــ الا يسعدك الحصول على كنوز الملك (سليمان) ؟

اطلق من اعماق صدره تنهيدة حارة ، وهــز راسه وكتفيه ، وهو يقول فى اسف :

ــ ما فائدتها ، وقد خسرت الكنز الحقيقى ؟

ثم أدار ظهـره لنا ، وانصرف متجاهلا أكداس الذهب والمجوهرات ..

لحظتها علمنا ما الذى يقصده بالكنز الحقيقى ، وامتلأت رءوسنا بصورة واحدة ..

صورة الملكة ..

* * *

مضت بنا القافلة فى الصحراء ، وقد تقدمتها أنا و (هيجز) ؛ لخبرتنا بدروب الصحارى ، وســار الكابتن فى الوســـط ، فى حين بقى (رودريك) فى المؤخرة ، لسمعه الحاد ، وخبرته فى كبح جمـــاح الجمال وقيادتها ..

وعبرنا مدينة (هرمق) العظيمة ، وقد خلت من سكانها ، وصارت اطلالا مهجورة ، على الرغم من أن حقولها لا تزال مزهرة يانعة ، وواصلنا سيرنا حتى بلغنا قرية مهجورة ، فحططنا فيها الرحال ، ورحنا نتناول طعامنا ، مع مغيب الشمس ..

ودار بيننا نقاش حول الطـــريق الذى ينبغى أن نتخـــذه ، أننطلق إلى الشـــــمال ، أم نســـــلك الطريق القديم ، بعد أن جفت مستنقعاته ، وخرج (رودريك) لاستطلاع المنطقة ، ثم عاد ليخبرنا انه قد وجد آثارا تشير إلى ان جيشا عظيما من (الفنج) قد غادر المدينـــة منـــذ ما لا يزيد على اثنتى عشرة ساعة على الأكثر ..

ولقد اقلقنا هذا كثيرا ، ورحنا نتساءل عما يعنيه هذا ، حتى غلبنا النوم ، فاستسلمنا إليه فى عمق ..

وقبيل الفجر ايقظنى (رودريك) ، وهو يقول :

ـــ معذرة لإزعاجك يا ابى ، ولكن هناك ظاهرة فى السماء ، احب أن تشاهدها .

استيقظت وتطلعت إلى الشفق ، حيث (المور) ، وهالنى أن أجد السماء هنـــاك مضاءة ، وكاننا فى وسط النهار ، فاسرعت إلى الكابتن ، الذى لم يذق النوم ، وهو يعلم أن حبيبته ستزف لأبشـــع رجل

عرفه فى حياته ، فهب يحدق فى المشهد بدوره ، ثم قال فى صوت هادىء :

ــ إن (المور) تحترق .

هتف (رودريك) فى انفعال :

ــ لا ريب أن (الفنج) قد تسللوا عبر الطريق السرى إلى (المور) ، ولا شك أن (بارونج) قد ذبح (جوشيا) ، أو قتله شر قتلة ، قبل أن تزف إليه سليلة الملوك .

غامت عينا (أورم) بحزن عميق ، دون أن ينبس ببنت شفه ، فى حين غمغمت أنا مشفقا :

ــ ياللملكة البائسة !! ترى ماذا أصابها ؟

هز (هيجز) رأسه ، وقال :

ــ من يدرى ؟.. إننى معجب حقا بتلك الفاتنة .. يا للبائسة !.

وفجأة هتف (رودريك) :

ــ هناك من يقتفى أثرنا .

أسرعنا إلى حيث يشير ، ووقع بصرنا على شبح ملثم ، يعتلى صهوة جواد متعب ، فرفع (هيجز) بندقيته إليه ، وقال فى صرامة :

ــ من أنت ؟

هبط الشبح عن جواده ، وبدا لنا كصبى صغير ، اتجه نحو الكابتن ، وقال فى صوت أجش :

ـ إننى رسول أحمل رسالة للكابتن .

وناول الكابتن شيئا ، ورأيت الكابتن يحدق فى هذا الشىء مبهوتا ، فألقيت نظرة على راحته ، وهتفت :

ـ رباه !!.. إنه الخاتم .. خاتم (بلقيس) .

وصاح الكابتن فى جزع :

ـ من أين أتيت بهذا الخاتم أيها الصبى ؟ وماذا أصاب صاحبته ؟

أجابه الصبى الملثم :

ـ لقد ماتت ابنة الملوك التى عرفتها ، ولم تعد بها حاجة لهذا الخاتم .

امتقع وجه الكابتن ، وتراجع كالمصعوق ، وانتقلت صاعقته إلينا ، عندما أردف الصبى بصوت مألوف لآذاننا :

ـ ولكن (مجيدة) التى أحبتك ما زالت على قيد الحياة .

وانتزع الصبى اللثام ، وشهقنا جميعا ..

لقد كان (مجيدة) نفسها ، التى رحنا نتطلع إليها

وانتزع الصبى اللئام ، وشهقنا جميعًا ..
لقد كان (مجيدة) نفسها ، التى رحنا نتطلع إليها ..

فى ذهول وصمت ، قبل أن ترنو هى إلى حبيبهـــا ، وتضيف :

ـــ لم تعد بى حاجة إلى الخاتم ، ما دمت سابقى إلى جوارك .

ضمها (أورم) إلى صدره فى لهفـــة وســـعادة واشتياق ..

الآن فقط نال الكنز الحقيقى ..

كنز الملك (سليمان) ..

[تمت بحمد الله]

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

كنوز الملك سليمان

٢

رائعة الأديب البريطانى (رايدار هاجارد) ، التى يقفز فيها عبر عالم الخيال ، إلى بلاد غامضة مجهولة ، وسط أدغال أفريقيا ، ليواجه مع أبطاله الأهوال والأحداث المثيرة ، فى سبيل بلوغ تلك الكنوز الأسطورية .. (كنوز الملك سليمان) .

قرش صاغ ٣٠

العدد القادم : دكتور نو

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع